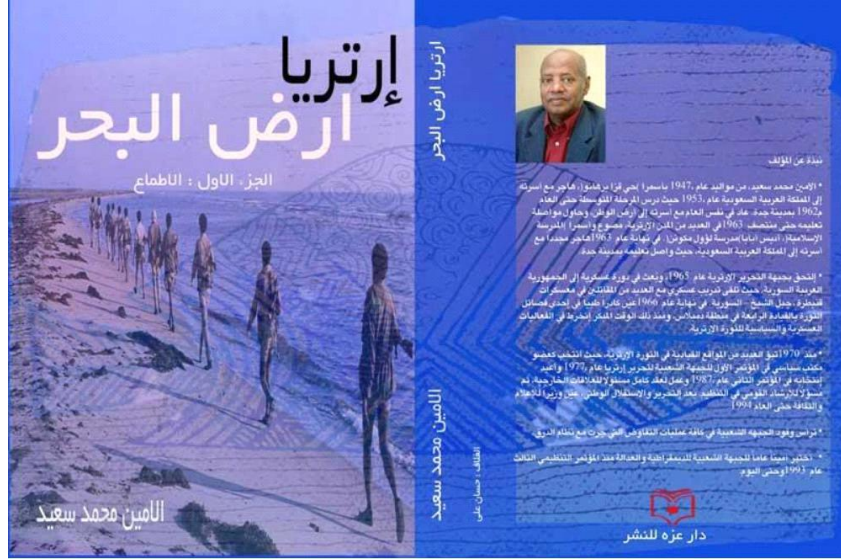


## الحلقة الثالثة

### الفصل الثاني

"ما أن يدخل الانجليز بيتنا إلا وقسموا اهله" (1)



(1)

ما ان اعلنت ايطاليا الفاشية في العاشر من يونيو من عام 1940 الحرب على دول الحلفاء بريطانيا، فرنسا والاتحاد السوفيتي، ولاحقا الولايات المتحدة الامريكية، حتى قامت الطائرات البريطانية في الحادي عشر من يونيو من عام 1940م، بشن سلسلة من الغارات الجوية على مدينة اسمر، وذلك كرد فعل على اعلان ايطاليا الحرب. وبعد ستة اشهر اي في التاسع عشر من يناير 1941م، تحركت الجحافل البريطانية التي كانت تحت إمرة الجنرال وليام بلات، وهي التي كانت متمركزة في منطقة كسلا، بالتوغل في الاراضي الارترية، لتحتل في نفس اليوم منطقة سبدرات (1) وماجاورها. ودارت المعارك في ضواحي كرن في منطقة طنقلحس نحو اربعين يوما بين الجيشين الايطالي والبريطاني. وقد كان الجيش البريطاني معززا ببعض الوحدات العسكرية السودانية والهندية، ليتمكن في 26 مارس

(1) تعبير كان يطلق من قبل المواطنين للتأكيد على سياسة 'فرق تسد' البريطانية

(1) سبدرات منطقة توجد في غرب ارتريا بالقرب من الحدود السودانية.

1941م، من تحطيم دفاعات كرن ودخولها. وفي الاول من شهر ابريل 1941م، تمكن البريطانيون من احتلال العاصمة الارترية اسمرا. وفي ابريل من نفس العام تمكن البريطانيون وبالتوالي من احتلال كل من، مينائي مصوع وعصب. وبهذا تمكنت بريطانيا العظمى من الانتصار على ايطاليا الفاشية في ارتريا واخضاع المستعرة لها. وبانتهاء الحرب العالمية الثانية فقدت ايطاليا كافة مستعمراتها في افريقيا وهي ليبيا، ارتريا والصومال الايطالي. ودخلت شعوب هذه المناطق عهدا جديدا، اصطدمت فيه طموحاتها من اجل الاستقلال الوطني، بالرغبة الامبريالية في الهيمنة والسيطرة على شعوب المنطقة وارضيتها.

لم تكن قرية ود الزبير مثلها مثل القرى والمناطق الارترية الاخرى بعيدة عن احداث الحرب العالمية الثانية. فقد عانت مثل قرية الشيخ حليب التي لا تبعد عنها سوى بضع كيلومترات، من تبعات الحرب البريطانيه-الايطالية في ارتريا. وكان سكانها بصفة اساسية يعتمدون على الرعي، والزراعة الموسمية في ضفتي خور الغزال، والقليل منهم كان يعمل على تفرغ وشحن السفن القادمة الى مصوع، والمتجهة منها الى بعض مدن الضفة الشرقية للبحر الاحمر، مثل مدن الحديد، جدة، ينبع، ايلات او المتجهة الى ايطاليا.

ولم تختلف حياة كلا القريتين عن بعضهما البعض سواء فيما يتعلق بحرارة الطقس ومستوى الرطوبة، وطريقة بناء المنازل، والحياة الاجتماعية للسكان، الذين يعيشون ضمن اطر ترابط اسري، تعرف او تكنى كل اسرة بكبيرها مثل اسرة عد شيخ، عد زويي، عد قريو، عد هاشم، عد وحيز، عد معر وعد جعفر... الخ. هذا الواقع الاجتماعي مكن كل اسرة من معرفة بقية الاسر التي لا تتجاوز تعدادها في احسن تقدير بضع عشرات.

وعلى الرغم من تشابه قرية ود الزبير في مناحي متعددة، مع قرية الشيخ حليب، الا انها كانت تختلف عنها في بعض المسائل. فاذا كان سكان قرية الشيخ حليب معروفون بالترث وعدم التعجل، فان سكان ودزبير كانوا على النقيض من ذلك، ولأتفه الاسباب يتشاجرون فيما بينهم، ويستخدمون اسوأ العبارات والكلمات النابية، ومع ذلك فقد كانوا طيبوا القلب، وسرعان ما يتسامحون ويتناسون ما يحدث من خلاف او شجار بين بعضهم، او بينهم وبين بعض مواطني القرى المجاورة. وكانوا كرماء مع ضيوفهم، ويعتزون بل ويفتخرون بهم.

إسماعيل زوي عمريت هو احد مواطني قرية ود الزبير. وكان مثله مثل بعض ابناء القرية، يعمل في ميناء مصوع كأحد عمال تفريغ وشحن البواخر الراسية في ميناء المدينة، وهو لم يتجاوز بعد سن التاسعة عشر من العمر. وقد اصبح فيما بعد احد زعماء ومشائخ القرية، يحظى باحترام وتقدير المواطنين، سواء في قرينته او في القرى المجاورة.

وكعادة كل عمال الميناء كان إسماعيل زوي عمريت وهو اب لطفلين، لا يتوجه لتناول طعام الغداء الى القرية، وذلك نسبة لبعدها عن الميناء، ثم العودة الى العمل بعد اخذ ساعة من الراحة. ولذلك كان يحاول قدر المستطاع ان يجلب معه غذائه المكون عادة من قطعة خبز الـ "حبزة"<sup>(1)</sup>، يتناولها مع كأس من الشاي من احدى المقاهى البلدية المرصوفة على مدخل الميناء. وفي حالة تعذر ذلك كان يلجأ الي بعض اصدقائه ليتقاسم معهم طعام غدايمهم. ومن ثم يتوجه الى دكان نجارة عبده علي، ليتردش ويتبادل اطراف الحديث مع صديقه إدريس محمد صالح جابر الذي كان يعمل كصبي نجار. وقد ولد اللقاء المبكر بين إدريس وإسماعيل صداقة حميمة بينهما استمرت طويلا.

في المساء وبعد الانتهاء من العمل وقبل غروب الشمس، يقوم إسماعيل زوي عمريت، هو وبعض ابناء قرية ود الزبير، بشراء بعض احتياجات اسرهم مثل قطعة صابون، او قارورة جازولين، او قليل من السكر والشاي لسد حاجة كل اسرة لليوم الثاني. ويتوجهون سالكين طريق القرية بعد ان يعبروا سقالت قطان<sup>(1)</sup>، وهم يغنون ويمرحون، ليصلوا الى قرينتهم بعد حوالي الساعة مشيا على الاقدام قبل آذان المغرب بقليل.

ما ان يصل احدهم الى القرية ليتناول طعام العشاء حتى يرتمي على السرير الخشبي المصنوع من سعف اشجار الدوم المعروف بـ "عرقى"<sup>(2)</sup> ويتناسى، بل يتجاهل تماما وفي كثير من الاوقات، حتى الالتزامات التي تفرضها العلاقات الزوجية. ولا يكون للنساء سوى قبول الامر، مقنعين انفسهن بان ازواجهن يبذلون كل مافي استطاعتهم لإعالتهم مع اولادهم، الى ان يجعل الله لهم مخرجا.

(1) رغيف محلي يستخدمه العديد من سكان السهول الشرقية في إرتريا.

(1) سقالت قطان جسر يربط بر منطقة عداقا بجزيرة طولوت المواجهة لجزيرة مصوع.

(2) "العرقى" سرير محلي يصنع من خشب جذع شجر النخيل او الدوم، ويستخدم بكثرة في مناطق الريف الإرتري خاصة في ريف السهول الشرقية.

كان إسماعيل زوي عمريت يسمع من كبار السن الكثير والكثير عن مدينة مصوع، خاصة ما يتعلق بما تحتوي من وسائل ترفيه ليلية تستمر حتى الصباح، والتي تباح فيها احتساء الخمر، ومضاجعة بنات الهوى دون قيد او رقيب. واصبح شاغل السيد إسماعيل زوي عمريت، كيفية التعرف على خفايا ما تقدمه مدينة مصوع خاصة في تلك الليالي. هذه المدينة التي كانت تسحر الكثير، والتي كان يزورها ويسكنها بعضا من مواطني القرى المجاورة، والكثير من الايطاليين، والبنين (الهنود) واليمنيين والاغريق وغيرهم.

مع مرور الوقت ومع الحصول على بعض من فائض الاجرة اليومية واغراءات بعض الاصدقاء، اصبح إسماعيل زوي عمريت بعد ان يفرغ من عمله، احد المترددين على بعض مواخير المدينة التي تتبع بعض انواع الخمر البلدي الرخيص مثل السوا والميس وغيرهما، محتسبا بعضا من اكواز تلك الخمر، ويمارس في بعض الاحيان الجنس مع فتيات الهوى، ليعود في منتصف الليل الى قريته مع بعض من اصدقائه وندمائيه، وهو في حالة "انشراح" تام.

إلا ان هذه العادة الجديدة التي وفرتها له مواخير مدينة مصوع لم تستمر طويلا، اذ ما ان وطدت قوات الاحتلال البريطانية اقدامها مدينة مصوع وضواحيها، حتى فرضوا على سكانها حظر التجوال من الساعة مساءا ليستمر حتى السادسة صباحا، مما تعذر على إسماعيل وندمائيه ممارسة هوايتهم المفضلة، اي السهر في ليالي مصوع، واحتساء كاسات من الخمر البلدي. بالاضافة الى ذلك فقد لاحظ إسماعيل زوي عمريت إشمئزاز ونفور اقاربه ومعارفه منه، وخشى الا يتحول الى شخص منبوذ. ثم ان ما يملكه من دخل يومي لا يمكن من تلبية احتياجاته الليلية. واعتزته حالة من تأنيب الضمير سواء امام اسرته الصغيرة، او امام خالقه. ومن هنا بدأ بتحكيم عقله ليقرر بالتوقف نهائيا عن هذه العادة، وبتقديم النصيحة لكل اصدقاءه بالتوقف عن كل ما هو محرم، وعن كل ما يؤدي الى الضياع.

## (2)

استبشر سكان ارتريا خيرا بانتصار الحلفاء ومن بينهم بالطبع إسماعيل عمريت. وفي احدى الليالي المقمرة وبينما سكان قرية ود زبير يتسامرون، ويتبادلون اطراف الحديث حول الشؤون السياسية العامة، والدور الذي من المفترض ان تلعبه قوات الاحتلال البريطانية، سواء في استتباب الامن، او خلق فرص العمل بهدف تحسين مستوى معيشة المواطنين، طلب احد الحضور وهو شاب يافع يعرف بسالم ابوبكر لم يتجاوز الواحدة والعشرين، من إسماعيل زبوي ان يروى لهم شعوره وشعور السكان اثناء دخول الانجليز الى منطقتهم. وبصوت جهوري بدأ إسماعيل حديثه:-

- استبشرنا خيرا عندما بدأت الطائرات البريطانية تلقي على قرانا ومدننا، العديد من الاوراق (المنشورات) التي تحثنا فيها على التمرد على الطليان، لانهم اغتصبوا اراضينا الزراعية الخصبة، وحولوا رجالنا ونساءنا الى عبيدا لهم، ومارسوا بحقنا التفرقة العنصرية.

ويواصل إسماعيل زبوي عمريت حديثه متحمسا، شاعرا بالفخر والاعتزاز:-

- كان الانجليز يصفوننا في اوراقهم تلك باننا محاربين اشداء مثلهم، لا نستحق ان يستعبدنا الطليان لاكثر من خمسين عاما. وباننا نستحق ان يكون لنا وطننا حرا سيدا ترفرف عليه رايتنا. وكان الانجليز قد قطعوا عهدا على انفسهم بانهم سوف يوفرون لنا بلدا مستقلا اذا قمنا بمحاربة الطليان والوقوف معهم.

شكلت المنشورات البريطانية، وفقا لتصورات المواطنين، بارقة امل للتححرر من عبودية ايطاليا الفاشية. اذ كان المرء منهم يعيش في العهد الاستعماري الايطالي، حالة من العبودية التامة، ولم يكن يسمح له بممارسة ابسط حقوقه الانسانية، ناهيك عن الحقوق الديمقراطية. فقد كان المواطن الارتري يحرم من حق العيش بكرامة، ولم يكن سوى وسيلة لتحقيق المصالح السياسية العامة للمستعمر الايطالي. كما كان يحرم حتى من الحصول على التعليم، والحياة الحرة الكريمة.

لذلك وبعد ان ايقن السكان باندحار وهزيمة الجيش الايطالي، وتمكن قوات الاحتلال البريطانية من السيطرة على اسمرأ، عمت الفرحة ارجاء البلاد. وبهذا الخصوص يواصل إسماعيل زيوي عمريت كلامه للشباب سالم ابوبكر:-

- شعرنا وكأننا ولدنا للتو عندما شاهدنا جحافل الانجليز والهنود والسودانيين تجوب شوارع المدن الارتزية، خاصة مدينتنا مصوع. واحس الكثيرون منا بان قيد الطليان قد انفك عن رقابنا ولالأبد. ولم نكن في تلك الفترة ندرك بان قيد الطليان سوف يتبدل بقيد الانجليز لسنوات قادمة. كانت فرحتنا عارمة، وخرج الآلاف منا في الشوارع، ونحن نتراقص على انغام الكبرو<sup>(1)</sup> والريابة والإمبلتا<sup>(2)</sup>. الا ان رد الانجليز على فرحتنا تلك كانت سلبيا، اذ طلب منا بان نكف عن الخروج، ونعود الى منازلنا، تحت حجة ان الذي نقوم به ما هو سوى شغب خارج على القانون. ولم يمض الوقت طويلا حتى اصدر الحاكم العسكري الانجليزي، البريجادير كندي كوك، اوامره بعدم التجمهر إلا بموافقة البوليس. وفرض على المواطنين عدم التجوال، والتجمع لأكثر من ثلاث او اربع اشخاص.

ويضيف إسماعيل للجمع قائلًا:-

- لم يكن الانجليز بالصادقين لمنحنا حقنا في تشكيل وطن خاص بنا، ولم يدم حلمنا كثيرا، اذ تبخر سريعا بعد سيطرتهم على مقاليد الامور في بلدنا. واكتشفنا بان وعدهم لم يكن سوى احدى الألاعيب التي يجيدونها. وان كل ما قيل لنا لم يكن سوى محاولة لكسبنا الى جانبهم ضد الطليان.

كانت الحرب العالمية الثانية وبالالا على الارتبيين، فقد شرد قصف الطائرات البريطانية العشوائي مراكز التجمعات السكانية، وإكثظت المدن الرئيسية وبشكل خاص العاصمة اسمرأ بالمشردين، وانتشرت البطالة، واخذ سيف المجاعة يفتك بالناس. وعلى الرغم من الخسائر التي مني الايطاليون بها. الا انهم لم يعانون كثيرا مثل بقية المواطنين الارتبيين، فقد قامت قوات الاحتلال البريطانية بحمايتهم، واسكانهم في المدن والمواقع الآمنة، وقامت بتوزيع الغذاء والدواء عليهم، وحافظت على ممتلكاتهم، وسعت قدر المستطاع الى طمئنتهم.

(1) طبل يصنع محليا.

(2) الإمبلتا آلة موسيقية مستطيلة الشكل (تشبه ماصورة الماء) تستخدم بصفة خاصة في مرتفعات ارتريا.

كان إسماعيل زويي عمريت صادقا، عندما اكد للجمع بان "وعد الانجليز لم يكن سوى احد الألعيب التي يجيدونها". فالمحتل البريطاني، واكثر من اهتمامه بالوضع السياسي العام في ارتريا، كان يهتم او ينشغل بالوضع السياسي العام في مستعمرته السودانية. ومن هنا انصب اهتمامه على كيفية تدعيم، وترسيخ تواجده الاستعماري في السودان. وتجاهل تماما ما قطعه على نفسه، من وعد بمنح سكان ارتريا الحق في تشكيل وطن خاص بهم. ومع مرور الايام بدأ يلوح بضرورة سلخ جزء من ارتريا وضمه الى السودان، خاصة ضم الجزء الغربي من ارتريا الى اقليم كسلا السوداني.

لم يقم المحتل البريطاني بفتح المجال لمواطني ارتريا لتحسين مستوى المعيشة عبر الحد من البطالة، او تقديم الخدمات الضرورية لهم. بل ركز كل جهده واهتمامه على مساعدة الايطاليين عبر تقديم مختلف انواع التسهيلات، بما فيها تقديم القروض الميسرة لهم. بل وصل الامر بالمحتل الى اعادة الاداريين الايطاليين في مواقع عملهم السابقة. والاستفادة حتى من العناصر الايطالية التي كانت تعمل في مجال الشرطة والامن، في تشكيل الأطر الامنية للإدارة البريطانية في ارتريا. والاسوء من كل ذلك، لم تقم السلطات البريطانية بإلغاء قوانين التفرقة العنصرية التي كانت تتبناها الادارة الايطالية الاستعمارية في ارتريا. مما مكن الايطاليون من مواصلة سياسة التفرقة العنصرية بحق المواطنين الارتريين، سواء في العمل او في المجال السياسي، والحياة الاجتماعية العامة.

وبينما الجمع يتسامرون في تلك الليلة في قرية ود الزبير، طرح احدهم ويدعى بخيت محمد علي سؤالا حول ماهية العلاقة البريطانية الاثيوبية، وكالعادة كان إسماعيل هو المجيب:-

- عندما غزا الطليان اثيوبيا اثناء الحرب التي عرفت بحرب الـ 1935م، وتمكنوا من السيطرة على اثيوبيا، انهارت المقاومة المسلحة التي كان يقوم بها المواطنون الاثيوبيون. ويعود ذلك للعديد من الاسباب ابرزها شح الامكانيات الاثيوبية، وعدم التكافؤ بين اثيوبيا والطليان من النواحي العسكرية، الاقتصادية والسياسية. بالاضافة الى الانهيار المعنوي الذي اصاب قادة المقاومة الاثيوبية، وتفضيلهم النجاة بجلودهم، وترك الطليان يمرحون ويسرحون كما يحلو لهم في اثيوبيا. وما ان تمكن الطليان من الدخول الى العاصمة الاثيوبية اديس ابابا، حتى فر كبار القوم وعلى رأسهم الامبراطور هيلي سيلاسي.

كان المجتمعون شديداً الاهتمام بكلام إسماعيل، ومعجبون بأسلوب حديثه، وطريقة عرضه للحدث وهو يستخدم ويلوح بيديه تارة نحو اليمين وتارة نحو اليسار بنفس طريقة استخدام الإيطاليين لايديهم اثناء الحديث. وهذا ما احس به إسماعيل، وشعر بنوع من الارتياح لاهتمام القوم به. مما شجعه على مواصلة حديثه، بعد ان رطب ريقه من ماء الزير المجاور له:-

- فر الامبراطور هيلي سيلاسي الى السودان تاركا شعبه وبلده تحت رحمة الطليان. ومكث فيه بعض الوقت تحت ضيافة الانجليز. ومن ثم نقل الى مستعمرة عدن الانجليزية في الشاطئ الآخر للبحر الاحمر، ومكث فيها ايضا ردحا من الزمن، واخيرا استقر به الترحال في ارض الانجليز. واصبح من موقعه الاخير يجوب مختلف البلدان الافرنجية طالبا الدعم والمساندة.

- وماذا بعد؟

قال احد الحضور دون ان يلاحظه بقية السامرين:-

- ترسخت العلاقة بين الامبراطور والحكومة الانجليزية. وكان الفرنجة ينظرون للامبراطور وعلى راسهم الانجليز بصورة عامة كأحد الابطال الذين واجهوا الفاشية الايطالية. وهذا لم يكن صحيحا، وان الحقيقة هو ان الامبراطور لم يكن بطلا مقاوما للطليان، بقدر ماكان احد الفارين، وتسبب فراره في اضعاف المقاومة الاثيوبية.

واصل إسماعيل زبوي عمريت حديثه والجمع يستمع اليه بتشوق:-

- بعد انتصار الانجليز ودخولهم الى العاصمة الاثيوبية، بادروا باعادة الامبراطور ومباركته. ووعدوا بان يلبوا له كل طلباته. انتهب الامبراطور حماس الانجليز والهالة التي صنعوها له، واخذ يطالب اولا بدعمه سياسيا وعسكريا حتى يتمكن من ترسيخ حكمه على اثيوبيا والاثيوبيين، وسرعان ما تمكن من بسط نفوذه مستفيدا من الدعم الافرنجي وعلى راسه الدعم السياسي والعسكري، فسخر الكنيسة الارثوذكسية الاثيوبية. بالاضافة الى ذلك بدأ بالمطالبة بمنحه كل المستعمرات الايطالية في شرق افريقيا وهي ارتريا والصومال الايطالي وذلك كإستحقاق للحرب التي شنها عليه الطليان.



### (3)

لم يسلم الريف الارتري من ويلات ونتائج الحرب واستحقاقاتها. فالأوضاع فيه لم تكن احسن من اوضاع المدن الاخرى مثل اسمرأ، مصوع وكرن، ان لم تكن اسوء منهما بكثير. اذ لم يكن لقوات الاحتلال البريطانية اي مصلحة في التخفيف عن معاناة اهل الريف. فجل همهم كان منصبا على كيفية تحويل المنشآت الايطالية من مصانع ومزارع لصالح المجهود الحربي. بالاضافة الى اهتمامهم ببناء المعسكرات، ومهابط الطائرات في منطقة قرع، ومخازن الاسلحة والوقود في كل من مناطق قندع، مصوع ودقي محري وغيرها. وبذلك تحولت المصانع، الى ورش تخدم المجهود العسكري البريطاني، تدار من قبل ضباط بريطانيين، يتم فيها انتاج قطع غيار لمدافع البريطانيين وعرباتهم العسكرية. وتحولت منتجات المزارع لصالح جنود وضباط قوات الاحتلال البريطانية.

وتم وبشكل متعمد اهمال صيانة الطرقات التي شيدها المستعمر الايطالي، والتي كانت تربط المواقع الحضرية بالريف الارتري. وتدهورت خدمات سكك الحديد التي كانت من اهم العوامل التي ساعدت في انعاش الاقتصاد الزراعي والرعي للريف. وتضررت من جراء ذلك العديد من القرى. واصبح تنقل المواطنين، وبشكل خاص نقل المنتجات الزراعية ليس صعبا وحسب، بل مستحيلا مما اصاب الريف الارتري بالشلل التام.

حقوص ارعدوم هو احد اصدقاء إسماعيل زويي عمريت. وقد توطدت الصداقة بينها منذ فترة طويلة عندما عملا معا في تفريغ وشحن البواخر في ميناء مصوع. الا ان الحرب شنتت شملهم، وعاد كل منهما الى مسقط رأسه. اذ عاد إسماعيل زويي عمريت للإنكفاء في قريته، وكذلك عاد حقوص ارعدوم لبحث عن رزقه في المزرعة الصغيرة التي ورثها عن ابيه في قريته المعروفة باسم قرية طول الواقعة في ضواحي منطقة سقنييتي.

بعد ان استتب الامر لقوات الاحتلال البريطاني، علم الصديقان كل بطريقته الخاصة، بان الادارة الاستعمارية البريطانية اصدرت اعلانا بتشغيل ميناء مصوع، وتطالب عمال الشحن والتفريغ بالعودة الى اعمالهم السابقة. ولم يكن للصديقين سوى التوجه الى ادارة ميناء مصوع، والاسراع بتسجيل اسمائهم والبدء بالعمل الذي افتقدوه طيلة الحرب.

لم يكن من الصدفة ان يلتقي الصديقان إسماعيل زبوي عمريت وحقوص ارعدوم مجددا، فكلاهما كان يعرف انه سيعود الى عمله بالميناء، ربما لاحساسهما بانهما كانا من انشط العمال.

لم يمض يومان على التحاق الصديقين بالعمل، حتى عادا الى سابق عهدهما بتناول طعامهما معا. وذات يوم جلس الصديقان كسابق عهدهما على رصيف الميناء للاستراحة وتناول طعام الغداء، كان حقوص ارعدوم متلهفا لمعرفة ما اصاب الناس في قرية ود الزبير ومناطق منخفضة ارتريا اثناء وبعد الحرب، اذ انه كان يسمع وهو في قريته عن سوء احوال المواطنين هناك خاصة سوء اوضاعهم الامنية. وكان مدركا بان إسماعيل زبوي عمريت هو الذي يمكن ان يروي له بحق وحقيقة طبيعة الاوضاع التي سادت تلك الفترة، فبادر بالسؤال:-

- كيف كانت الاوضاع عندكم؟.

في هذه اللحظة كان إسماعيل زبوي عمريت قد فرغ تماما من طعامه، وبعد ان رشف قليلا من الماء من زمزميته، التفت الى صديقه وهو يقول:-

- كانت المعيشة صعبة للغاية، وكنا نكتفي في اكثر الاحيان بتناول وجبة واحدة في اليوم، وهي وجبة الصباح. ولم نعد نشرب قهوة الصباح المعتادة، وتركنا تدخين السجائر، ولم نعد نهتم بالتمباك، وكل ذلك من اجل التقليل من مصروفاتنا. ووصل الامر بنا الى درجة اننا لم نكن نستثنى اولادنا من ذلك. وانتشرت بيننا الامراض التي لم نكن نعرفها في السابق مثل الاسهال الحاد، والطفح الجلدي الذي ما ان يتعرض له المرء حتى يصاب بالحمى، والحك المستمر ليلا ونهارا، ولا يبرأ منه الا بصعوبة بالغة. كما تعرضت مواشينا لأضرار لا نعرف حتى الآن مسبباتها، الى درجة ان بعضا من المواشي خاصة الابل، كانت تصاب بفعل تلك الامراض، بالصرع والجنون حتى الموت. وتصاب البقية من الابقار والماعز بإسهال حاد، حتى تعجز عن تناول طعامها وشرابها، لتصاب وفي اقل من خمسة عشر يوما من الاصابة، بالعمى ومن ثم الموت المفاجئ دون ان نتمكن حتى من ذبحها للاستفادة من لحومها وجلودها.

اعتصر حقوص ارعدوم ألما وهو يستمع باهتمام ماكان يرويهِ إسماعيل. ولم يتصور ان الايام سوف تفعل فعلتها السيئة وتخون مواطني قرية ود الزبير، وبقيّة القرى الاخرى، ومن

بينهم إسماعيل زويي عمريت وأسرته. فهو يعرف تلك القرى أكثر من معرفته بقريته، ويتذكر تماما كيف كان القوم في قرية ود الزبير، والقرى الأخرى يرحبون بضيوفهم، خاصة إذا علموا بأن ضيفهم من قرية بعيدة، وكيف يقدمون مالذ وطاب من مأكّل ومشرب للضيوف. وكان حقوص اعدوم مستغربا من امتلاك بعض من أبناء تلك القرى عشرات المئات من رؤوس الماشية، دون ان يتظاهر، كما يفعل بعض من أبناء قريته، بالتباهي والاعتزاز. لم يتوقع حقوص في يوم من الايام ان يفقد هؤلاء القوم مواشيهم في لحظة وجيزة.

قرأ إسماعيل زويي عمريت تعابير وجه صديقه حقوص اعدوم، واكتشف بان صديقه يحس بالمرارة لما اصاب مواطني قرية ود الزبير والقرى الأخرى، فسارع ومن اجل التخفيف من معاناته مواصلا حديثه:-

- يا صديقي العزيز هذه سنة الحياة، ويجب ان نقبل بها. والمطلوب منا كمواطنين إرتيين العمل بجد ومثابرة من اجل تحسين وضعنا، والمحافظة على كرامتنا. وان هذا لا يمكن ان يتم او يتحقق إلا بتكاتفنا، والعمل المتواصل، والقدرة على التحمل، واحترام وتقدير بعضنا البعض.

شعر حقوص اعدوم بشحنة معنوية عالية تسرى في كيانه من جراء كلام صديقه، وأحس بان الدنيا لازال فيها بعضا من الخير. وقبل ان يكمل استرساله، واصل لإسماعيل حديثه:-

- كان بإمكاننا تحمل الاوضاع المعيشية السيئة، وكان بالإمكان أيضا مواجهة انتشار الامراض والابوئة. الا اننا لم نكن نتحمل ما انفجر بيننا من صراع قبلي، كان اسوء من كل ماواجهناه. اذ ما ان تمكن الانجليز من السيطرة على منطقتنا، حتى انتشرت الفتن القبلية. تلك الفتن التي كانت خامدة اثناء عهد الاحتلال الايطالي. انتشرت الفتنة بين قبائل الساهو والعساورتا، وبين العفر والساهو، وبين التجري خاصة البلو وبين الساهو في منطقتنا. كما علمنا بان الفتنة قد انتشرت بين الالمداء والرقبات من التجري، وبين بيت اسقدي من الشماقلي في منطقة الساحل، وبين الهدندوا والبنى عامر، وبين الماريا والبنى عامر في منطقة السهول الغربية، وبين الكوناما والباريا من ناحية، وبين القبائل الأخرى في منطقة بركة والقاش. وقد اخذت الفتنة ابعادا متعددة حول الارض والعشب، وطبقيا بين السادة والعبيد وكان هذا اخطرها. وبعدا آخر اخذ طابعا تنافسيا للزعامة والسيطرة على القبائل والتحكم فيها. والواقع لم يكن

الصراع ضروريا، اذ كنا نعيش مع بعضنا البعض حتى دون ان يعرف الكثير منا انتمأتهم القبائلية، ولم يحدث ومنذ كنا صغارا، وان شاهدنا او سمعنا خلافا جرى بين فرد من قبيلة فلان، وفرد من قبيلة علان على اسس قبلية. واذا حدث وان تشاجر بعضا من افراد قبائلنا في العشب والماء، كان كبارنا ومشائخنا، ودون اعطاء اي اعتبار لعامل القبيلة، يقومون باجراء الصلح وتوبيخ المخطئ. الا ان الانجليز فجروا فينا اسوء واقبح صفاتنا الا وهو التناحر القبلي. والفتنة بشكلها العام لم تكن بفعالنا، بقدر ماكانت بفعل الانجليز لانهم كانوا يخشون ان نقف صفا واحدا ضد اطماعهم. توقف إسماعيل زويي عمريت لاخذ قسطا من الراحة، فأنتهز حقوص اعدوم الفرصة ليقول:-

- لقد سمعنا بذلك وتألما كثيرا لما اصاب ابناء المنطقة.

اراد إسماعيل اكمال الصورة، ودون ان يهتم بمداخلة صديقه اضاف:-

- سببت لنا الفتنة الكثير من الخسائر فنحن لم نخسر التضامن والتعاقد الذي كان بين قبائلنا، بل خسرنا ارواحا كثيرة، وشحنت النفوس بالاحقاد والضغائن اكثر من اي وقت مضى، وانتشرت عمليات الثأر المتبادلة، الا ان وصلت الامور الى عدم مراعاة حتى حقوق الشيخوخة، والامومة والطفولة. واصبح الواحد منا لا يحس بالامان والاستقرار.

- وكيف تم معالجة الفتنة ؟

قالها حقوص اعدوم.

لم يشأ إسماعيل زويي عمريت التوقف دون ان يكمل، اذ سرعان ماقال:-

- تدخل الانجليز لكن بعد فوات الاوان، اي بعد ان تفشت الفتنة وانتشرت، ولم يكن تدخلهم حاسما، اذ كل الذي قاموا به لم يتجاوز سوى نشر بعض الوحدات العسكرية المؤلفة من جنود سودانيين وسنغاليين، وبناء بعض المعسكرات في مناطق الصراع القبلي. وعندما شاهد كبار القوم عدم مبالاة الانجليز سارعوا وتدخلوا لإيقاف عمليات الثأر المتبادلة كخطوة اولية، باعتبار انها كانت تشكل اسوء ظاهرة، والعمل باتجاه اصلاح ما افسده الانجليز.

لم يتمكن إسماعيل زبوي عمريت من مواصلة الحديث، اذ ان ماكان مقررا من وقت الراحة قد انتهى. وسمع الصديقان نداء رئيس العمال وهو يحث الكل، بالبدء بالعمل في تفريغ شحنة الباخرة البريطانية التي كانت راسية في الميناء، والتي كانت تحتوي على بعض الذخائر، وقذائف المدفعية وبعض الملابس العسكرية التابعة لقوات الاحتلال البريطانية. ولم يكن للصديقين من بد سوى تلبية نداء العمل، وتوجه كل واحد منهما الى موقع عمله. في اليوم الثاني بعد انتهاء نوبة العمل اليومية الاولى لعمال الميناء، توجه الصديقان الى مكانهما المفضل في رصيف الميناء لتناول طعام غداثهما كالعادة، ومواصلة الحديث حول الاوضاع العامة. فبادر إسماعيل زبوي عمريت صديقه:-

- لقد استمعت لي يوم امس، واريد ان استمع اليك اليوم. فكيف كانت حياتكم في المرتفعات؟.

تتنح حقوص ارددوم ، وكالعادة وبعد ان حك رأسه كإشارة للبدء بالكلام إستهل الحديث:-  
- لم تكن الاوضاع في منطقتنا بشكلها العام باحسن حالا عن اوضاع منطقة سهول ارتريا. فجاناب البطالة، وتدهور المعيشة، والآفات الزراعية التي كانت تأكل الاخضر واليابس لمزارع القرى، عانت المنطقة من تدفق الجنود المسرحين الذين لم يكن لهم حيلة ولا قوة سوى العودة مجددا الى قراهم ومزاولة الزراعة فيها. لقد تم تسريح أولئك الجنود بصورة اعتباطية، اذ لم تقم السلطات الانجليزية بتوفير ابسط احتياجاتهم، ناهيك عن تقديم التعويضات الضرورية التي يمكن ان تعيّلهم في ممارسة حياتهم الطبيعية.

- كيف تسبب أولئك الجنود في معاناة اهل القرى؟.

سؤال طرحه إسماعيل زبوي.

فرد حقوص:-

- لم تكن اعداد المسرحين بالقليلة. وكما تعلم فقد كانت منطقتنا مخزنا بشريا كان المستعمر الايطالي يغرف منه كما يريد، بهدف تحقيق مغامراته ومآربه العسكرية سواء في اثيوبيا، اوليبيا وحتى الصومال. وكنتيجة لذلك فقد التحق العشرات من الآلاف من ابناء المنطقة بالجيش الايطالي. وعندما قامت السلطات الانجليزية بتسريح الجنود، حدث ارتباك شديد اذ تدفق الجنود المسرحين الى القرى لمزاولة

الزراعة مما خلق مشكلة كبيرة، ادت الى مزاحمة ومنافسة قوية على الاراضي الزراعية، لتكون النتيجة ظهور منازعات حادة كادت تصل في بعض الاحيان الى الاقتتال، واثارة النعرات الفئوية والعنصرية بين السكان الاصليين، ومن كانوا يعتبرون انفسهم اصحاب الارض الاصليين، الذين يريدون انتزاع الارض من اولئك الذين يعتبرونهم دخلاء على منطقتهم، وكثيرا ماكانوا يستخدمون العنف لتحقيق مقاصدهم. مما ادى الى شق اواصر وحدة وتلاحم سكان القرى. بالاضافة الى ذلك وكنتيجة للصراع على الارض، وما سببه ذلك من انفلات الامن في تلك القرى، فضل العديد من ابناء قريتنا والقرى المحيطة بها النزوح الى اماكن يستطيعون فيها الحصول على قطعة ارض مناسبة تمكنهم من مزاوله حياتهم الطبيعية.

ظهرت علامات الاهتمام الزائدة بوجه إسماعيل وهو يستمع لرواية صديقه، اذ لم يكن يتوقع ان يسبب عودة الجنود المسرحين اشكالات عميقة للمواطنين. ولم يتوقع إسماعيل ان تكون اعداد المسرحين كبيرة الى درجة ان تصل الى بضع من عشرات الألوف. فهو لم يلاحظ مثل هذه المشكلة في منطقتهم. ويعود السبب في ذلك الى ان الاعداد المسرحة من منطقتهم لم تكن تتجاوز وفي اكثر تقدير عن بضع مئات من الجنود، اذ لم يكن لسكان المنطقة في العهد الاستعماري الايطالي الفرصة للالتحاق بالجيش. ولم يؤد تسريحهم الى خلق مصاعب اقتصادية واجتماعية لسكان قريته. ومع ذلك اراد إسماعيل ان يعرف المزيد مما تخبئه ذاكرة صديقه، فطلب منه وهو يبتسم مواصلة الحديث.

ونزولا عند رغبة إسماعيل عمريت، استمر حقوص اعدوم في حديثه:-

- بينما كان الاهالي في حوجة ماسة لقطعة ارض زراعية، كانت سياسة الانجليز تتمثل في عدم التدخل لفض نزاعات سكان القرى، والعمل باتجاه الحفاظ على عشرات الآلاف من الهكتارات من الاراضي الزراعية الخصبة التي يمتلكها المستوطنون الايطاليون، وتوزيع اراضي زراعية جديدة كانت خاضعة للإدارة الاستعمارية الايطالية، على الاوروبيين من طليان، وانجليز وامريكان. هذا الاجحاف الانجليزي زاد كثيرا من معاناة اهل قرى المرتفعات الارترية. واصبحت الارض من ناحية نعمة للمستوطنين، ونعمة على المواطنين من ناحية اخرى.

وبينما إسماعيل عمريت مستغرقا في تفكير عميق تجاه الاحداث التي كان يرونها حقوص اعدوم، لم يحس الصديقان إلا وقت العمل يداهمهم، معلنا عن انتهاء فترة راحة الظهر، ليضطرا الى تفريغ شحنة الباخرة البريطانية الراسية في ميناء مصوع.

على الرغم من اجحاف الادارة الاستعمارية البريطانية وجبروتها، فان رد فعل مواطني ارتريا لم يكن هيننا. فهم وبالامكانات المتاحة لهم كانوا يعبرون عن سخطهم وغضبهم تجاه السياسات البريطانية، سواء ما يتعلق بموضوع الارض، او موضوع الحياة المعيشية، او مسألة تسريح الجنود، او تفضيل المستوطنين الايطاليين على سكان البلاد. وكتعبير عن سخطهم كانوا يلجؤون الى احراق مزارع الايطاليين وتضييق الخناق عليهم، ونصب الكمائن الصغيرة للجنود البريطانيين خاصة في الريف، والقيام في بعض البلدات والمدن النائبة بعمليات نهب مسلح على بعض المتاجر المملوكة للاوروبيين، وايقاف حركة السير على الطرقات العامة.

#### (4)

سببت وفاة الشيخ محمد صالح جابر فراغا معنويا كبيرا لدى السيدة ملوك عبدالقادر . فهي لم تعد تتحمل قسوة الفراغ الذي احدثته وفاة زوجها. فرحيل الشيخ ابقدها الدفئ والحنان الذي كان يوفره لها. وماكان يؤلمها اكثر هو التجاهل الذي ابداه اولئك الذين كانوا يأتون لزيارة الشيخ، وقضاء جزء من ليالي السهر القمرية معه. بالاضافة الى عدم السؤال عنها، او التردد على بيت الشيخ عدا في المناسبات، مثل اعياد الفطر والاضحى.

لقد كانت السيدة ملوك مثلها مثل سيدات ذلك الزمان قنوعة وراضية بما كتب لها. ولذلك لم تكن تتذمر من قلة المساعدات التي كان يقدمها لها شقيقها السيد جعفر عبدالقادر، ولم تكن ايضا تشكو من ندرة تلك المساعدات في كثير من الاحيان.

إدريس محمد صالح جابر ورث عن ابيه وهو لا يزال صبيا يافعا تركة ثقيلة. اذ لم يكن له من مفر من تحمل مسؤولية رعاية والدته السيدة ملوك واخيه احمد. ولذلك لم يدخر جهدا لملى الفراغ الذي احدثته وفاة والده الشيخ محمد صالح جابر، فعمل صبيا نجارا في مدينة مصوع، كما عمل تاجرا صغيرا منتقلا بين مختلف البقاع يبيع ادوات زينة تلك الايام مثل البخور، الكحل، الشب، الاساور، الحبل وخواتم الفضة، والعديد من اصناف الملابس النسائية.

كان إدريس يقوم بشراء ادوات الزينة من بعض التجار اليمنيين الذين كانوا يعبرون البحر، ويعرضون بضاعتهم في اسواق مدينة مصوع. ومن ثم يقوم بشحن مااشتره على ظهر احدى جمال الاجرة، وفي كثير من الاحيان يحمل بضاعته على ظهره، ويأخذ رضى والدته وبركاتهما، لينطلق بها قبل بزوغ الفجر من قريته قرية الشيخ حليب، مارا بسهولة شبح وقدقد، متسلقا خور لبكا الوعر، ليصل الى منطقة قلب في غروب الشمس، ويبيع جزء من بضاعته على بعض اصحاب الدكاكين، ومن ثم يتوجه الى منزل زميله محمود دبساي الذي يملك متجرا صغيرا في سوق قلب، يبيع فيه السكر والدقيق، وانواع مختلفة من حبوب الذرة لقضاء الليل كله في استضافته.

في صبيحة اليوم الثاني، وكالعادة وقبل بزوغ الفجر يحمل ما تبقى من بضاعته ليتسلق ما تبقى من الجبال الشاهقة، والصخور الحادة ليصل الى مدينة كرن بعد صلاة الظهر بقليل. وبعد ان يأخذ القليل من الراحة، ويتناول طعامه في احدى المطاعم البلدية التي تشتهر بها



مدينة كرن، والتي عادة ما تقدم لزبائنها عصيدة البلتوق المشهورة في المنطقة مع قليل من اللبن، يتوجه الى بعض اصحاب الدكاكين المهتمين ببضاعته، الذين يتهافتون على هذا النوع من البضاعة، ويقدم كل منهما سعرا مغريا. ويكتفي إدريس بما يراه مناسباً دون ان يرهق نفسه في مساومات التجار، ويبحث له عن مرقد يقضي به الليل حالما بالعودة الى قريته سريعا.

في صبيحة اليوم الثالث ينهض إدريس مبكرا ويسرع الخطي ليصل الى قلب. وفي اليوم الرابع يصل الى قريته، قرية الشيخ حليب. ويتوجه رأسا الى والدته السيدة ملوك التي تحسب الثواني حتى يعود، للسلام عليها والحصول على رضاها. ويقدم لها جزء مما اكتسبه من الشلنات الانجليزية، ويتناول طعام عشائه المكون من الحليب وخبر الـ "حبزة"، ويتوجه مباشرة الى فراشه ليستغرق في نوم عميق حتى آذان الفجر.

كان إدريس يحس بالفخر رغم ما كان يعانيه من مشاق الطريق ومخاطر السفر. وكان يحس بانه يؤدي دوره المطلوب في رعاية والدته واخيه الصغير من خلال ما يقوم به من تجارة. وكان فخورا ومعتزا بنفسه، اذ كان يرى بانه اصبح في عداد الرجال الذين يجوبون بقاع المنطقة، بحثا عن لقمة شريفة. وكان قنوعا بما كان يجنيه من ارباح، وما كونه من صداقات مع العديد من تجار قلب ومدينة كرن.

وعلى عكس إدريس، لم تكن السيدة ملوك عبدالقادر بالراضية عن الجهد الذي يبذله ابنها إدريس. فقد كانت تعيش في حالة من القلق، وكثيرا ما كانت تنتابها الهواجس خوفا من تعرض ابنها لمكروه، وهو يقطع المسافات الشاسعة حتى يصل الى مدينة كرن ليتاجر ببضاعته. وتكون في حالة نفسية متردية، منذ ان يرحل ولا تهدأ حتى تراه عائدا معافى.

كان طريق شبح - قدقد الذي يسلكه إدريس وهو يقصد مدينة كرن، محفوبا بالمخاطر. ولم يكن اي شخص يتجرأ على عبوره بمفرده حتى في وضح النهار، اذ ان كثيرا ماكانت الذئاب المتعطشة لدماء البشر تسيطر عليه خاصة في الليل. بالاضافة الى ذلك فقد كان الطريق يمتلئ ويعج بقطاع الطرق المعروفين لدى المواطنين بـ "الشفتا"، وذلك اثناء عبورهم من منطقة عنسبا الى منطقة سمهر. ولم تكن سلطات الادارة الاستعمارية البريطانية تستخدمه إلا نادرا، وفي حالة الاضطرار. وهذا ماكان يعرفه ويتحدث عنه اهالي المنطقة، ومن بينهم

اهالي قرية الشيخ حليب وتدرکه السيدة ملوک عبدالقادر. ومن هذا الفهم كان يتولد لدى السيدة ملوک الشعور بالخوف من الطريق الى کرن.

حاولت السيدة ملوک مرارا وتكرارا منع ابنها من استخدام الطريق، بل سعت الى ثنيه من القيام بالتجارة في کرن، والبحث عن عمل تجاري آخر وفي اماكن اخرى. الا ان إدريس كما كانت تصفه "بناشف العقل" كان يرفض تلبية طلب والدته، ويصر على عدم التحدث بهذا الخصوص. اذ انه كان يرى وبقناعة تامة، بان العمل التجاري الذي يقوم به يدر عليه كسبا لابأس به، وبفضل ذلك امکن له رعاية نفسه واسرته الصغيرة. كما كان يدرك بان التوقف عن التجارة يعنى توقف ما كان يتحصل عليه من كسب مالي، مما سيخلق له صعوبة فائقة له في توفير لقمة العيش.

بالاضافة الى ذلك، فقد كانت السيدة ملوک عبدالقادر تخشى من ضياع ابنها في مجاهل طريق شبخ - قدقد الذي كثيرا ماكانت تصفه بطريق الموت. وكانت تحس ايضا بان خريف العمر بدأ يداهمها دون ان تتأكد من مصير ومستقبل ابنها إدريس، الذي ناهز الثانية والعشرين من العمر. فبدأت بالتفكير في كيفية إنقاذ ابنها من مخاطر التجارة اولا، والتأكد على ضمان مستقبله ثانيا. وفي احدى الامسيات، وبعد ان عاد إدريس من رحلته التجارية، وتناول طعام عشائه، وبدأ في الاستعداد للنوم، اذ باخيه الاصغر أحمد يقف امامه قائلا:-

- السيدة تستدعيك ( لم يكن اي من اولاد السيدة يتجرء بمناداتها باسمها المجرد).

استغرب إدريس، وعاجل اخيه مستفسرا.

- ماذا تريد ؟ هل هي متوعدة؟

- لا ادري ماذا تريد، وهي ليست متوعدة، وكل الذي طلبته منى هو ان استدعيك.

حاول إدريس ان يخمن ماذا تريد منه والدته، الا انه لم يتمكن من معرفة ذلك. وكل الذي كان يخشاه هو ان لا تكون في حالة غير صحية، اذ انه لم يكن يتوقع ان تستدعيه، خاصة وهو ينوى التوجه لفراشه للنوم الذي هو في حاجة اليه فعلا. فلم يكن له من بد سوى تلبية طلب السيدة ملوک عبدالقادر.

حضر إدريس، وطلبت منه السيدة ملوک الجلوس بجوارها، وبينما هي تتحس بيدها اليمنى رأسه، بادرت بالقول:-

- اريد ان تصغى لما اقوله لك باننباه.

رد عليها إدريس:-

- خير إنشاء الله ياسيدة.

- خير يابني.

احس إدريس بان الامر ليس طبيعيا، وبينما هو في حالة تردد قال لها:-

- ماذا بك لماذا لا تتحدثين، هل انت بخير ؟ هل تحسین باي مرض ؟ هل استدعى شخصا ما؟.

ودون ان تهدر الوقت، اذ كانت تدرك بان ابنها متعجل للذهاب الى الفراش، القت السيدة ملوك نظرة ملؤها الحنان على ابنها وقالت:-

- يابني لقد قمت بالكثير من اجلى ومن اجل اخوك أحمد. ولم تدخر جهدا من اجل رعايتنا، وانا راضية كل الرضى بذلك. إلا اننى اواجه مشكلة وهي تورقني منذ فترة بعيدة.

تأكد إدريس بان السيدة ملوك لا تعاني من اي مرض طارئ، فقال لها مقاطعا:-  
- قولي ما تريدين.

سيطر الخوف للحظة على السيدة ملوك عندما لاحظت الصرامة التي بدأت على ابنها عندما طلب منها قول ماتريد، ولم تتمكن من السيطرة على اعصابها، اذ سرعان ما بدأت تجهش في البكاء.

لا حظ إدريس ذلك، الا انه لم يهتم كثيرا بامر بكاء السيدة، اذ كثيرا ما كانت تلجأ الى مثل هذه الحيلة من اجل التأثير عليه. ولم يأخذ الامر على محمل الجد، وبكل تأدب قال لها:-

- ياسيدة لماذا البكاء، ماذا تريدين، ماذا اصابك؟ إنك تعلمين بانني لا ارفض لك طلبا

...

تمالكت السيدة اعصابها، واخذت في مقاطعة حديث ابنها قائلة:-

- انني اخشى عليك من العمل الذي تقوم به. فهذه المهنة محفوفة بالمخاطر. وبصرف النظر عن الكسب والخسارة، فان هناك مخاطر جمة، فهناك مخاطر السفر، بل هناك ايضا مخاطر التعرض لهجمات الذئاب المفترسة، وعصابات "الشفقتا" على طريق الموت، طريق شبح - قدقد، وهناك ايضا أمور اخرى.

ادرك إدريس بان السيدة ملوك تريد التحدث مجددا حول ضرورة ترك العمل التجاري الذي يقوم به تحت حجة مخاطر السفر، فقال لها جادا:-

- لقد تحدثنا كثيرا حول مخاطر التجارة ولا جديد فيما تقولينه. انك تعلمين تمام العلم بانني اقوم بذلك العمل الشاق، حتى اوفر عليك مشقة الحياة، وليس حبا في المخاطرة. ومع ذلك فإنني اقدر مخاوفك.

ردت عليه قائلة:-

- إذا اترك التجارة التي تمر عبر طريق الموت.

اجابها:-

- لكن ما هو البديل، ماذا نفعل وكيف نوفر لقمة عيشنا؟.

فكرت السيدة ملوك قليلا لتقترح:-

- يمكن البحث عن عمل في مكان آخر. يمكنك العمل في ميناء المدينة مثل ما يفعل صديقك إسماعيل ابن الشيخ زبوي عمريت، فهو يحصل على مبلغ يوفر له ولاسرته الصغيرة عيشة كريمة.

ضحك إدريس واراد التخفيف من قلق والدته قائلا:-

- نعم ان صديقي إسماعيل يعمل في الميناء وهو شاب خلوق يعود الى بيته مبكرا. الا انه يتحصل على كسبه بعد بذل الجهد الكبير. وان عمله ليس بالشئ المضمون، فهو مرتبط بمجئ البواخر، وهي بالكاد لا ترسو في الميناء إلا بعد مضي الايام، قد تصل في بعض الاحيان الى اشهر.

قاطعته السيدة:-

- يكفي انه يعيش وهو هانىء البال، ولا تقلق عليه والدته السيدة بخيتة علي.

احس إدريس بالملل، ومن اجل ان يضع حدا للمجادلة قال:-

- ان الدخل الذي اتحصل عليه من تجارتي، وبصرف النظر عن المخاطر، هو اضعاف ما يتحصل عليه صديقي إسماعيل. ومن اجل ذلك امكنا العيش بمستوى افضل من مستوى اسرة الشيخ زبوي عمريت.

ومع إقرار السيدة ملوك بصحة ما يقوله ابنها، لم تياس من المحاولة فأقترحت:-

- اذا كنت لا تريد العمل في الميناء، فانني اقترح عليك القيام بفتح متجر صغير في المدينة، تمارس فيه البيع والشراء دون ان تعرض حياتك لمخاطر التجارة المتجولة، ودون ان تتركني اعاني من القلق خوفا عليك.

شعر إدريس بارتياح لفكرة فتح متجر صغير خاص به في المدينة. واستغرب لماذا لم يفكر بذلك قبل الآن فقال:-

- ومن اين لنا بالمال الذي يمكننا من فتح متجر صغير في مدينة مصوع؟. تنفست السيدة ملوك عبدالقادر اخيرا، اذ احست بانها بدأت في التأثير على ابنها، فأسرعت قائلة:-

- انني اوافق على ان تبيع بعضا من المواشي، واذا اردت بيع كل المواشي التي تركها لنا والدك الشيخ محمد صالح جابر.

بدأ العجز يظهر على إدريس، اذ لم تعد حججه السابقة فاعلة لاقناع السيدة ملوك بالكف عن مطالبتها له بالتوقف عن التجارة المحفوفة. كما بدأ إغرائها ببيع بعضا من المواشي، لافتتاح متجر صغير في المدينة يأخذ مجراه في التأثير عليه. فقرر تأجيل المناقشة في ذلك قائلا:-

- انني احس بالارهاق، وحبذا لو سمحت لي بالنوم، على امل ان اعطي الجواب القاطع لما تطلبينه يوم غد.

كانت السيدة واثقة بانها قد اثرت على ابنها، فقالت وابتسامة الرضى تطغى على وجهها:-  
- تصبح على خير.

لم يكن إدريس حقيقة يريد ان ينام، فقد طار النوم من عينيه في اللحظة التي استدعته السيدة ملوك عبدالقادر. واخذ وهو مستلقيا في فراشه يفكر في كيفية انجاح مقترح والدته الذي رآه مناسباً. وراح يجمع ويضرب العدد الذي يكفيه من المواشي التي يمكن ان توفر له المبلغ المطلوب لافتتاح متجره. واخيرا استقر به الحال بان يقبل مقترح السيدة ملوك، وذلك ببيع ما بين 5-10 من الابقار، وكذا من الاغنام والماعز. ليغوص بعد ذلك في نوم عميق لم يستيق منه إلا عندما شعر بان السيدة ملوك تقف بجواره، بعد ان ادت صلاة الفجر، وهي

تحمل طعام افطاره المفضل المكون من عصيدة الماشيلا<sup>(1)</sup> بالسمن البلدي، مع كوز من حليب الماعز.

- صباح الخير يا بني، لقد احضرت لك طعام الافطار.

تلفت إدريس يمينة ويسرى واحس بنوع من السعادة وهو يرى والدته تقف بجواره حاملة طعام الافطار. وماكان منه سوى النهوض من فراشه، ورد تحية الصباح، ليأخذ إبريقه المليئ بالماء متوجها الى المكان الذي عادة ما يخرج اليه صبيحة كل يوم لتفريغ بول الصباح. وبعد ان انهى حاجته، توضأ وصلى الفجر ليعود الى السيدة ملوك، ويتناول افطاره.

- لقد قررت ان ابيع جزء من المواشي لتحقيق اقتراحك.

قالها للسيدة ملوك عبدالقادر، ونفسه مليئة بالثقة والاعتزاز.

ردت عليه السيدة :-

- على بركة الله يا بني.

توجه إدريس وهو يسوق ماشيته، الى سوق المواشي الكائن في منطقة عداقا بعراي<sup>(2)</sup>، وفي تقديره بانه الشخص الاول الذي سوف يصل الى السوق، مما سوف يسهل له ذلك في بيع ماشيته سريعا، ويعود الى قريته مبكرا، ويطمئن السيدة ملوك عبدالقادر. ولقد كان له ما اراد، ولم يسبقه سوى شخصان يعرضان مواشيهما كانا قد امضيا الليل كله في انتظار افتتاح السوق.

عرض إدريس بضاعته، وبينما هو يساوم ويفاوض في البيع مع بعض تجار المواشي، وبعد اخذ ورد معهم عرض عليه احد التجار بان يشتري كافة مواشيه البالغة اربعة عشر رأسا من الماشية، منها خمسة من الابقار، وتسعة من الاغنام والماعز بسعر اجمالي يبلغ خمسة عشر جنيها، من جنيهاات شرق افريقيا، وهو مبلغ مناسب يمكنه من افتتاح متجر صغير في سوق مدينة مصوع. ووافق إدريس على الفور وقرأ مع التاجر سورة الفاتحة دلالة على الرضى والوفاق. وبعد ان دفع مستحقات رسوم البيع لضابط بلدية سوق المواشي، توجه الى قريته وعلى الفور ابلغ والدته بنتائج صفقته.

إرتاحت السيدة ملوك للصفقة التي نجح فيها ابنها، وهننته بذلك قائلة:-

(1) الماشيلا تعني باللغة المحلية الذرة الرفيعة، وهي غذاء أساسي لمعظم سكان ارتريا.

(2) عداقا بعراي هي احدى ضواحي مدينة مصوع.

- كان قلبي يحدثني بانك سوف تلبي طلبي. وها انا اشعر الآن بالراحة، وانني اهنتك  
واتمنى لك حظا سعيدا. ولا يتبقى لي سوى الحديث معك حول ضمان مستقبلك.

انبهر إدريس، وما لبث وان قال:-

- ماذا بعد ياسيدة، ايوجد مستقبل اكثر من السعي الى افتتاح متجر خاص بي؟.

قالت:-

- نعم يوجد مستقبل اهم من افتتاح متجر.

اراد إدريس تجنب الدخول في موضوع جديد. اذ كان همه مركزا في كيف يمكن الحصول  
على دكان صغير يتجار فيه. فالتفت الى السيدة ملوك وقال:-

- حسنا يمكننا تأجيل الحديث عن ما يدور في خلدك لمناسبة اخرى.

وافقت السيدة ملوك على هذا الاقتراح، على امل مواصلة الحديث في ما بعد.

بعد ثلاث ايام توجه إدريس محمد صالح جابر بناء على نصيحة والدته الى احد اقربائه من  
والدته ويدعى الحاج عمر افندي. وبعد السلام والتحايا قال:-

- لقد قدمت اليك في امل الحصول على مساعدتك.

رد عليه قريبه:-

- خير انشاء الله ياإدريس؟

وكالعادة ودون الاطالة تطرق إدريس لما جاء من اجله قائلا:-

- اريد ان تبحث لي عن مكان صغير استخدمه كمتجر في سوق المدينة، اذ انني  
سئمت مخاطر تجارة السفر.

رد عليه الحاج عمر افندي:-

- اعتقد باننا يمكن ان نتحصل على الدكان الذي تريده، لاكنني لا استطيع ان اخمن  
السعر الذي يطلبه منا صاحب الدكان، اذ علينا بحث هذه المسألة معه.

واستدرك الحاج قائلا:-

- لكن اخبرني بما تريد ان تتجارفيه؟.

رد عليه إدريس:-

- بمواد الزينة اذا امكن، اذ انني قد الفت هذا النوع من التجارة. واذا تعذر علي ذلك  
فيمكن ان اتاجر بالمواد الغذائية مثل السكر، الدقيق والزيت...الخ.

لم يكمل إدريس حديثه حتى فاجئه الحاج قائلا:-

- واين لك المال، وماهو رأي السيدة ملوك عبدالقادر، اهي توافق على ذلك؟.

رد إدريس:-

- ان افتتاح متجر صغير هو من مطالب السيدة الوالدة. وهي التي اصرت علي بان اقوم بذلك، وان اتحدث بشأن الحصول على دكان صغير معك. اما المال فقد تحصلنا عليه من بيع بعض المواشي الخاصة بنا.

تعجب الشيخ عمر افندي، واثنى في قرارة نفسه بحكمة السيدة ملوك واقتراحها الممتاز وقال:-

- سوف اتوجه يوم غد الى احد اصدقائي من الدالين الذين يعملون في تأجير العقارات. وانشاء الله سوف آتيك بالنتيجة قريبا.

ودع إدريس الشيخ عمر افندي. وبعد اربع ايام اتى الحاج الى بيت اسرة الشيخ محمد صالح جابر. وبعد السلام على السيدة ملوك والاطمئنان على صحتها. وبعد ان تناول فنجان القهوة الذي قدم له. افتتح الحديث موجهها كلامه لكل من السيدة ملوك وابنها إدريس:-

- لقد تحصلت على دكان يفي بحاجة إدريس، وهو يقع في وسط السوق العربي الذي يعج بمختلف المحلات التي تبيع العديد من اصناف البضائع من مواد غذائية، الى ادوات الزينة، والملابس النسائية، والعديد من محلات خياطة الملابس الرجالية.

كاد إدريس يطير من الفرح وهو يقول:-

- اقلت انك وجدت لي مكانا في السوق العربي؟ انني لم اتوقع ان تجد مكانا في هذا السوق، الذي يعج بالمارة والمتسوقين من اليمانية، والطلبان والهنود. انه سوق حي، واعتقد بان التجارة فيه رابحة.

لم يسترسل إدريس كثيرا اذ قاطعه الحاج افندي قائلا:-

- علينا التوجه يوم غد لمقابلة صاحب الدكان والتفاهم معه حول سعر الايجار، ومعرفة المطلوب منا. واتمنى لك التوفيق والنجاح.

قامت السيدة ملوك ونيابة عن ابنها بشكر الحاج عمر افندي، وترديد عبارات الشاء له. حسب الموعد توجه الحاج عمر افندي وإدريس الى مدينة مصوع، ومنها الى السوق العربي، وتمكنوا من مقابلة صاحب الدكان وهو احد أثرياء المدينة، ويملك العديد من المتاجر. واتفقا



معه على سعر الايجار الشهري الذي لا يتجاوز ربع جنييه، على ان تدفع كل بداية اول شهر. بالاضافة الى دفع ايجار ثلاث اشهر مقدمة تسترد متى ما انتفت حاجة المستأجر الى المحل. وذلك كإحتياطي يخصم منه في حال عدم الالتزام بدفع الايجار الشهري، او تستخدم في حالة اصابة المحل بأضرار نتيجة لسوء الاستخدام.

وبذلك تمكن إدريس من تحقيق امنية السيدة ملوك عبدالقادر في ترك تجارة التجوال ومخاطرها، ليستقر في متجره يبيع ويشتري وهو مطمئن الحال، مستقر البال.

## (5)

في الفترة التي استقر فيها إدريس محمد صالح جابر في السوق العربي بمدينة مصوع، كانت اوضاع المواطنين خاصة الاقتصادية تزداد سوءا يوما بعد آخر. وزادت حدة البطالة من تقاوم الازمة الاقتصادية للبلاد. واصبحت الحالة المعيشية لمواطني المدن من السكان لا تطاق، خلافا عن الاوروبيين الذين كانوا يسيطرون على مقاليد الوضع الاقتصادي. مما ادى الى زيادة الحساسية، وتنامي الحذر والريبة بين المواطنين واصحاب الاعمال الايطاليين والبريطانيين والهنود.

ولم تقم الادارة الاستعمارية البريطانية بالدور المطلوب للتخفيف من الابعاء الاقتصادية التي عانت منها البلاد. فهم ومن خلال حسابات سياسية خاصة بهم، لعبوا دورا سلبيا تمثل في تخريب الاقتصاد الارثري بصورة متعمدة. وكان المواطنون ومن بينهم ابناء الشيخ محمد صالح جابر، وهما إدريس وأحمد شهود تلك الفترة.

وكعادة اهل المنطقة، خاصة اهالي قرية الشيخ حليب، كان الناس في تلك الفترة اي في نهاية فترة الاربعينات يهتمون بالاوضاع السياسية العامة للبلاد. وفي احدى الامسيات وبينما الاخوان يتسامران، بدر الى ذهن إدريس ضرورة ان يروى لاخيه أحمد بعضا من "مساوي الانجليز" حسب تعبيره، لعل ذلك يفيد اثناء المناقشات التي كانت تجري بينه وبين اقرانه من الشباب فأستهل حديثه بالقول:-

- اتدري يا أحمد ان الانجليز يلعبون دورا اساسيا في تخريب اقتصادنا الوطني.

لم يكن أحمد يدرك ما يقوله أخيه، وبشكل فضولي قال:-

- ماذا تعني بتخريب اقتصادنا الوطني؟

استدرك إدريس الامر:-

- كان الانجليز يمالؤون ويدعمون مطالب هيلي سيلاسي بالحق بلادنا بامبراطورية

اثيوبيا. ولم يكن لهم سبيلا لتحقيق ذلك سوى تخريب اقتصادنا الوطني، حتى يتسنى

لهم الادعاء بان "ارثريا لا مستقبل اقتصادي لها، ولا تستطيع ان توفر لابنائها لقمة

العيش. وان مستقبلها لا يمكن ان يتحقق إلا بتقسيمها بين السودان وارثريا".

استغرب أحمد وكان يريد مقارنة الروايات التي كان يتناقلها الطلاب والمدرسين في كيفية قيام الانجليز بتخريب الاقتصاد الوطني. ووجد ضالته في اخيه إدريس، اذ سرعان ما قام بطرح السؤال التالي:-

- كيف عمل الانجليز على تخريب الاقتصاد الوطني؟ او ما هو الاسلوب الذي اتبعوه في تحقيق ذلك؟.

رد عليه إدريس قائلاً:-

- استخدم الانجليز اسلوبين لتحقيق هدفهم. الاسلوب الاول تمثل في عدم القيام بفتح مشاريع جديدة سواء كانت اقتصادية او زراعية، بجانب عدم القيام بصيانة المصانع، المباني العامة، الجسور والمطارات. والاسلوب الثاني تمثل في بيع المنشآت الارترية العامة. وقد باعوا في مصوع معدات الميناء مثل، معدات نقل وتفريغ البضائع (الكريونات)، والعديد من البواخر، ومخازن الوقود، والترفيك، ومعدات التنقيب عن البترول، ومصنع الاسمنت. وباعوا العديد من العقارات العامة، والمصانع مثل مصنع البوتاس، وعربات القطارات وغيرها في المدن الارترية. وقد بيعت كل تلك الممتلكات العائدة للشعب باثمان بخسة للتجار الايطاليين والهنود واليمنية.

واضاف إدريس:-

- وهذا ما كان يتماشى مع الرغبة والطموح الحقيقي لاطماع الاثيوبيين، وبعض الفئات الارترية من كبار التجار، مثل الثري الذي نستأجر دكانه.

لم يستوعب أحمد حقيقة ما كان يقوله اخيه من تحليل لطبيعة واهداف بريطانيا. كما لم يتمكن من فهم رغبة الاثيوبيين وبعض الفئات الارترية من تخريب الاقتصاد الوطني، او التعاون مع اثيوبيا ومجاراة رغباتها. ومن هنا لم يتردد في طرح السؤال التالي:-

- لماذا اراد الانجليز مساعدة الامبراطور واعوانه من الارتريين؟.

رد عليه إدريس:-

- لا تنسى يا أحمد فالامبراطور هو احد حلفاء البريطانيين. وبالتالي فان الواجب حسب اعتقادهم كان يحتم عليهم مساعدته في الحصول على ارتريا، ومن خلالها الحصول على موطئ قدم في البحر الاحمر. وهذا ما كان يحلم به الاثيوبيون من زمن بعيد. وكل هذا لا يمكن ان يتحقق إلا عبر تخريب الاقتصاد الوطني الارتري من ناحية،

وتقديم الدعم السياسي اللازم للامبراطور هيلي سيلاسي من ناحية ثانية. وهذا ما مكن اثيوبيا من التحرك في اوساط العديد من كبار الشخصيات الكنسية من امثال أبونا مارقوس، والعديد من المتعلمين الارثريين، الذين سبق وان استضافهم الامبراطور هيلي سيلاسي في اثيوبيا على نفقته الخاصة، من امثال لورينزو تازاز، دجزماتش قبر مسقل هبتي ماريام وآخرون، وقدم لهم الاموال والهدايا الثمينة، ليقوموا بتنفيذ ما اسموه بالوحدة التاريخية بين ارتريا واثيوبيا.

لاحظ ادريس اهتمام اخيه، فقرر مواصلة حديثه:-

- لم يكتف الانجليز بالسعي لتدمير اقتصادنا الوطني، وتقديم الدعم السياسي لاطروحات ومطالب هيلي سيلاسي والتعاطف معهما. بل بذلوا جهدهم لتقسيم بلادنا إرتريا بين السودان واثيوبيا. كما قاموا بتدبير المكائد التي تثير النعرات والعداوات الدينية، مثل المكيدة التي كانت نتيجتها قتل اكثر من 50 مواطنا مسيحيا في اسمرأ على ايدي كتيبة من القوات السودانية التابعة للجيش البريطاني في العام 1946م. بالاضافة لذلك تستر الانجليز على الجرائم التي كانت ترتكبها اثيوبيا بحق المواطنين الارثريين من قتل، وانتهاك حقوق بأيدي عصابات الشفتا، وغيرهم من المتعاطفين مع اثيوبيا.

ارتسمت على احمد علامات التعجب، وبادر اخاه قائلاً:-

- لكن كيف وبأي الوسائل تمكن مثل هؤلاء من التأثير على بعض منا؟.

كان ادريس متحمسا اذ كان يشعر بانه يقوم بعمل سياسي هام، ولذا لم يتردد اذ قال على الفور:-

- حاول المتعاطفون مع هيلي سيلاسي من الاستفادة بصورة واسعة من حالة التذمر التي كانت سائدة بين المواطنين، وذلك بسبب انتشار البطالة بعد هزيمة ايطاليا، كما استغلوا ايضا كراهية اهلنا للاجانب بشكل عام والايطاليين بشكل خاص. كما استفادوا من حالة هامش مساحة حق التعبير التي سمح بها الانكليز ليقوموا باصدار العديد من المنشورات التحريضية، والقيام بعقد الاجتماعات والندوات السياسية التي تبث فيها الكراهية ليس بحق الاجانب، بل ايضا بحق المواطنين وبصورة خاصة بحق المسلمين منهم. واصر أبونا مارقوس العديد من الفتاوي التي تأيد الامبراطور هيلي

سيلاسي، ومن ابرزها تلك الفتوة التي تطالب اتباع الكنيسة بالالتزام بتأييد دعاوي اثيوبيا، وإلا سوف يكون مصير من لم يلتزم الطرد من الكنيسة الارثوذكسية. لماذا يتعاطف هؤلاء وبهذه الصورة مع اثيوبيا، خاصة تعاطف تاجرنا الثري في مصوع؟. سؤال مباشر طرحه أحمد. وكانت اجابة إدريس:-

- كثير من التجار، وكبار ملاك الارض، وبعض المشائخ والقساوسة كانوا ولازالوا يتعاطفون مع الاهداف الانجليزية، ويرون بان مصالحهم لا تتحقق إلا من خلال اثيوبيا، التي يصفونها ليل نهار بـ "اثيوبيا العظمى". وهم لا يؤمنون بان لائبا ارتريا القدرة في تكوين وطن خاص بهم. فهم وحسب زعمهم يعتقدون بان "ارتريا لا تملك الكفاية من المتعلمين" الذين يمكن ان يديروا شؤون البلاد. كما يؤمنون مثلهم مثل الانجليز بان ارتريا لا تمتلك القدرة الاقتصادية التي تمكن من توفير لقمة العيش لابنائها. بالاضافة الى ذلك يعتقدون بل يؤمنون بان القدرة الإلاهية ترعى الامبراطور هيلي سيلاسي.

لم يتمالك احمد نفسه، اذ شعر باهانة شديدة واستبد به الغضب ليقول ألم تخلق منطقتنا رجالا يتصدون لمثل هؤلاء المتعاونين مع اثيوبيا؟. احس ادريس بالحالة النفسية التي بدأت تسيطر على اخيه، ومن اجل التهدة واكمال الصورة له رد قائلا:-

- بلى يا أحمد، كان بالمقابل العديد من العظماء من الشخصيات والزعماء المخلصين من امثال إسحاق تولدي مدهن، ابراهيم سلطان علي، ولدآب ولدماريام وغيرهم كثر، يناطون ويفحمون مؤيدي اثيوبيا، ويحثون المواطنين للاستفادة من حالة هامش مساحة حق التعبير، والاجتماع والتظاهر، وذلك من اجل المطالبة بحقوقهم، والتفاكر حول مستقبل وطنهم. وكانوا بالاضافة الى ذلك يعقدون الاجتماعات، ويصدرون البيانات التي تدعو الى منح ارتريا الاستقلال التام، واذا تعذر ذلك المطالبة بان تبقى ارتريا تحت انتداب الامم المتحدة لبضع سنوات حتى تستقر الاوضاع، ويتحقق الاستقلال الوطني لشعب ارتريا. بالاضافة الى ذلك كان العديد من الزعماء الوطنيين يطالبون بمحاربة الجهل، والفقر، والجشع، والكذب، والنميمة وغيرها والتشبث بفضائل الاخلاق الحميدة. مما ساعد على خلق رأي عام ارتري معادي لاثيوبيا واعوانها،

وادی الى خلق حالة من التصدع بل الانقسام الحاد في جمعية حب الوطن بين المؤيدين والمعارضية للامبراطور هيلي سيلاسي.

تنفس احمد واحس بإنقشاع حالة التوتر التي اصابته. الا ان فضوله لم يتوقف عند هذا الحد. اذ سرعان ما قال:-

- وماذا بعد يا إدريس؟:-

اخذ ادريس يمسح حبات العرق التي بدأت تتساقط من على وجهه وهو يقول:-

- انك شاب ذكي وتكاد تجيد القراءة والكتابة. انظر ماذا يكتب أولئك الداعمين لاثيوبيا،

وكيف يستفيدون من مناسبات الاعياد والمآتم للقيام بالتعبئة لصالح اثيوبيا. انهم

يسعون الى تحقيق المصالح الاثيوبية، وعبر ذلك تحقيق مصالحهم.

وبينما الاخوان يتناقشان حول الوضع العام للبلاد، اذ وبصورة فجائية تنتصب امامهم السيدة ملوك عبدالقادر قائلة:-

- ماذا تفعلان، الا تحسان بالملل وانتما تتناقشان وتتجادلان. لقد سرقكما الوقت،

واقترب منتصف الليل، وعليكما الذهاب للنوم.

تغامز الاخوان، وقررا الذهاب للنوم.

## (6)

لم يكن الوضع السياسي العام في إرتريا في تلك الفترة بأحسن حالا عن الوضع الاقتصادي العام، إذ سرعان ما انفلت هو الآخر، وأصبح التذمر سمة الحياة اليومية لتلك المرحلة. فمن ناحية كانت الإدارة البريطانية تثير العداوات الدينية، والقبلية، وتشجع بصورة ملحوظة الافراد والاتجاهات السياسية الداعمة لتقسيم ارتريا بين السودان واثيوبيا. ومن ناحية ثانية كان الامبراطور هيلي سيلاسي يبذل قصارى جهده، بما فيه تكوين العديد من عصابات "الشفقا" التي كانت تقوم باغتيال وتهديد المواطنين الغير منسجمين مع طموحات اثيوبيا، مثل اغتيال السيد عبدالقادر كبيرري، ومحاولة اغتيال السيد ولدآب ولدماريام، وغيرهم من الشخصيات الوطنية الارترية. وكل ذلك من اجل تحقيق ضم ارتريا الى الامبراطورية الاثيوبية.

اصبح الوضع في تلك الفترة حرجا للغاية، فمن ناحية تدهورت الحياة المعيشية في البلاد، ومن ناحية اخرى لم يعد الناس ينعمون بالامن والامان، ومن بينهم بالطبع السيدة ملوك عبدالقادر، التي ازدادت هواجسها من المجهول، وتدهورت صحتها. وبدأ تفكيرها ينصب في كيفية حماية ابنائها، وبصورة خاصة ابنها إدريس، وضمان مستقبلهما. فقررت مفاتحة ابنها البكر بما تحس به، وبما يشغل بالها. وقد لاحظ إدريس التدهور الذي بدأ يعتري السيدة ملوك، وذات مساء دخل عليها مستفسرا:-

- مابك ياسيدة ؟ انني احس بانك مضطربة، وتكثرين على غير عادتك من النوم، ولا تتناولين طعامك بانتظام.

انتهزت السيدة ملوك تلك الفرصة، وبصوت منخفض طغى عليه الارهاق، قالت:-

- يابني لم تعد لي حيلة في مواجهة ما نعيشه هذه الايام، خاصة وان خريف العمر بدأ بمداهمتي منذ فترة ليست بالقصيرة.

بدأ الخوف يدب في نفس إدريس. وخشى ان لا تفارقه السيدة ملوك وهو في امس الحاجة الى نصائحها وارشاداتها، فدنا منها يحنو قائلا:-

- لا باس بك ياسيدة، انك بخير.

ومن اجل التخفيف والترويح عنها، اردف قائلا:-

- انك بصحة جيدة، وافضل بكثير من صحة العمة بخيئة، وتبدين يافعة كالتى تنتظر عريسا لها.

ضحكت السيدة ملوك وهي تقول:-

- سامحك الله يا إدريس، انك لازلت كما كنت صغيرا لا تستطيع ان تفصل بين الجد والهزل.

رد عليها إدريس:-

- نعم لازلت صغيرا لك ياسيدة، الا انني كبيرا مع الآخرين.

ضحك الاثنان. وسريعا ما بدأت السيدة ملوك بالتفكير في طريقة مصارحة ابنها بما يدور في خلدتها. فانتهزت لحظة الانسجام البادية على ابنها وقالت دون تلوؤ:-

- يا بني انني اريد ان ارى احفادي قبل ان يداهمني الزمان ويغدر بي.

لم يكن إدريس يتوقع ان تهبط عليه صاعقة كالتي اطلقتها السيدة ملوك. فهو يدرك بان والدته تريد منه ان يتزوج، وهو لم يفكر في اي يوم من الايام بان "يكمل نصف دينه"، كما كان يؤمن ويعتقد كبار السن من سكان قرية الشيخ حليب. وبينما هو يسرح في تفكير عميق فاجتته السيدة ملوك قائلة:-

- ماذا تقول لماذا تحولت فجأة الى ابكم؟.

تنبه إدريس ودون اي تفكير ولسان ملعثم :-

- نعم ياسيدة انني ...

ودون ان يكمل عاجلته السيدة:-

- ماذا بك اليس الزواج على سنة الله ورسوله حق من حقوقك. الم يتزوجني والدك رحمة الله عليه وهو لم يبلغ العمر الذي انت فيه.

مرة اخرى ودون ان يلوي على شيء:-

- ياسيدة لقد فوجئت ... لا ادري ماذا اقول ... انني في وضع ...

حرصت السيدة ملوك على طمئنة ابنها وهي تقول:-

- اننى لا اطالب بان يتم هذا في يوم وليلة. علينا اولا وقبل كل شيء ان نتفق على الزواج. ومن ثم نبحث عن من تكون زوجة لك.

ارتاح إدريس، وبدأ يستعيد انفاسه. وفكر قليلا في كيفية اتمام رغبة السيدة ملوك، فهو يحس بانها على صواب، وان من حقه ان تكون له زوجة وابناء. لكن لم يكن بالقادر على فهم كيف يمكن اتمام ذلك.



لاحظت السيدة ملوك بان ابنها شارد الذهن، وعلى الفور:-

- ما بك اني اراك شاردا؟.

رد عليها:-

- انت تعلمين بانني لا ارفض لك طلبا. وان ماتقترحينه يصب في مصلحتي دون اي

شك. لكن كيف يمكن تحقيق ذلك ؟ اين الفتاة المناسبة ؟ وكيف يمكن تغطية

مصاريف وتكاليف الزواج، وما يصحب ذلك من تأسيس منزل وخلافه ؟.

ساد المكان لبرهة صمت مطبق. وبعد لحظات وبلهجة آمرة قالت السيدة ملوك:-

- انا المسؤولة عنك وانا التي تقرر، انك لازلت في نظري صغيرا، ولا تستطيع ان تبت

في مسألة الزواج لوحداك. هكذا كان يفعل آباؤنا واجدادنا، وانا بمثابة الاب والام لك.

فوجئ إدريس بما سمعه، وتأكد تماما بان السيدة ملوك لازلت هي الكل في الكل. ولا مخلص

من ذلك. فقرر مجاراتها، وقال لها وهو مطأطئ الرأس:-

- حسنا افعلي ماتريه مناسبا.

أحست السيدة ملوك وكانها امتلكت مفاتيح الدنيا.

وبعد اسبوع من الزمان، استدعت ابنها لتقول:-

- لقد استدعيت ابن خالتي الحاج عمر افندي، وشرحت له ما تم بيني وبينك من تفاهم

حول الزواج. وطلبت منه ان يتوجه الى بيت السيد ياسين عمر الشيخ ليخاطب لك

ابنته فاطمة، ويتفق معه ان كان راغبا على تزويج ابنته، وعلى موعد الزواج والمهر

وخلافه.

قاطعها إدريس:-

- لكن ياسيدة لماذا الاستعجال ونحن لم نرتب بعد مستلزمات الزواج، كما انني لم

اشاهد حتى الآن بنت العم ياسين ولا اعرف شكلها.

بدت السيدة ملوك عبدالقادر وكانها لا تسيطر على اعصابها وبلهجة حادة:-

- انت لا يحق لك البت في هذا الموضوع، وقد سبق وان اخبرتك بانني انا التي تقرر،

وانا التي تعرف من من البنات اصلح لك. ثم الا تستحي ان تشاهد بنت الشيخ

الفاضل وتحدد شكلها وطولها و...

لم تكمل السيدة ملوك كلامها، اذ اراد إدريس تطيب خاطرها، فقاطعها:-

- انك تعلمين جيدا، وهذا ما ا قوله باستمرار، وهو انني لا ارفض لك طلبا. وانني على يقين تام بانك سوف تختارين لي عروسا مناسبة.

تشجعت السيدة ملوك لتضيف:-

- لقد قبل الشيخ ياسين تزويجك ابنته فاطمة وذلك بعد ان استشار اخوانه وابناء اعمامه. الا انه يرى بان تتم الخطوبة والزواج في وقت واحد في العام المقبل، معتقدا بان ابنته لازالت قاصرة وهي لم تتجاوز السابعة عشر من عمرها.

- وهل تقبلين بذلك؟

سؤال وجهه إدريس لمعرفة مدى قبول وتحمس السيدة بمقترح الشيخ ياسين.  
وكان الرد من السيدة:-

- نعم اقبل بذلك، وما عليك سوى ترتيب اوضاعك، والاستعداد للدخول الى زوجتك في العام المقبل.

بذل إدريس خلال عام كامل جهدا كبيرا لتوفير مستلزمات الزواج. فكان يعمل بجد واخلاص حتى في ايام العطلات الاسبوعية. وبذلك استطاع ان يوفر مهر العروس وصيغتها، المكونة من خمسة جنيهات تدفع كمهر، وحوالي عشرين او خمسة وعشرين جنيها قيمة صيغة العروس، وتضم قطعتي ملابس، وحجل مصنوع من الفضة، وزمام وتلال<sup>(1)</sup> مصنوعين من الذهب، وبعض ادوات الزينة مثل الكحل، والطور، والحناء وغيرهما.

في الموعد المحدد للزواج اي في صيف العام 1946م، وفي احد ايام الجمعة تقرر عقد قران إدريس محمد صالح جابر بالأنسة فاطمة ياسين عمر الشيخ، على يد الشيخ حمد منتاي، شيخ قرية الشيخ حليب.

ومنذ الصباح الباكر توافد اقرباء واصدقاء إدريس الى المنزل، وقام اصداقاه بغسله، وحلق رأسه، وتهذيب لحيته وشاربيه، وتقليم اظافره، ووضع الحكل على عينيه، والباسه سروال طويل تغطيه جلابية (قميص عربي) بيضاء فضفاضة الشكل، وجبة واسعة، ولف رأسه بعد وضع الطاقية عليه بعمامة من الحرير. وقدم له سيف ذو قبضة فضية، مع عصا ملبسة بجلد غزال صغير.

(1) أزمام هو الذي يوضع في الأنف، وألتلال يوضع في الأذن.

في منتصف النهار توجه إدريس محمد صالح جابر، يرافقه الحاج عمر افندي، وثلة من اقربائه واصدقائه، الى بيت اهل العروس وهم يرتدون ما عندهم من اجمل وانظف الملابس البيضاء الناصعة، ويغنون ويتراقصون على طول الطريق. وقد امتطى إدريس في رحلته القصيرة تلك الى بيت السيد ياسين عمر الشيخ، جملا بشاريا البس حلة خاصة بمناسبة الافراح، وهي عبارة عن هودج خشبي محشو ببعض الياف النباتات مع ريش النعام، مغطى بصورة بديعة بجلد معزة بيضاء، وقطعة قماش حمراء تغطي معظم اجزاء الجمل، وتتدلي من عنقه شرائط حريرية ملونة. وعند وصول الموكب صفق الكبار وتعالص اصوات الصغار، وانطلقت زغاريد النسوة من ارجاء المنزل، ودقت الطبول إذانا ببدأ مراسيم الزواج.

جلس إدريس على سجادة مزركشة صنعتها والدة العروس خصيصا لهذه المناسبة، من ألياف سعف النخل الرطبة المفتولة ببعض شرائط الاقمشة الحمراء والصفراء، ومزينة بالعديد من اصداق البحر الناصعة البياض، ومطرزة بخيوط حريرية ملونة. وقبالته جلس السيد ياسين عمر الشيخ، يتوسطهما الشيخ حمد منتاي وذلك لإجراء مراسيم عقد النكاح. وما ان انتهى الجمع من قراءة سورة الفاتحة، وصلوا وسلموا على الرسول الكريم، حتى بدأت مراسيم عقد النكاح، وذلك بان وضع الشيخ حمد منتاي يد السيد ياسين عمر الشيخ فوق يد إدريس محمد صالح جابر، وغطاهما بمنديل ابيض احضره معه خصيصا للمناسبة، ووضع يده فوق أيديهما:-

- هل تقبل بتزويج ابنتك فاطمة على السيد إدريس محمد صالح جابر، على سنة الله ورسوله، وعلى المهر والصداق المقدم لها؟.

سؤال مباشر وجهه الشيخ حمد منتاي للسيد ياسين عمر الشيخ الذي رد:-

- نعم اقبل بتزويج ابنتي فاطمة على السيد إدريس محمد صالح جابر، على سنة الله ورسوله، ووافق على المهر والصداق المقدم لها.

ادار الشيخ منتاي رأسه نحو إدريس:-

- هل تقبل ان تتزوج الأنسة فاطمة ياسين عمر الشيخ، على سنة الله ورسوله؟

رد إدريس:-

- نعم اقبل بذلك.

انطلقت الزغاريد، وامتزجت بتصفيق الرجال وصيحات الصغار، وما ان اعلن الشيخ منتاي باتفاق الطرفان على المهر والصداق، والمؤخرة، حتى قام الجمع الذي حضر مراسيم عقد النكاح بقراءة سورة الفاتحة تعبيراً عن الرضى، ودلالة على انتهاء المراسيم. ولم يتمهل الشيخ اذ سرعان ما تمت ببعض من آيات القرآن الكريم، وقام بالدعاء للزوجين وفقاً لطريقة وتقاليد قرية الشيخ حليب. ولم يمض الوقت حتى قام اهل العروس باحضار القهوة المخلوطة بحب الهيل والقرفة التي تعرف في المنطقة باسم "قهوت حليت"، والعديد من الصحون المقعرة المليئة بعضها بحليب الماعز، والآخرى بحليب البقر، وبعضها منها بحليب الابل، لتقدم اولاً على العريس، ومن ثم على الشيخ منتاي، وبعده على السيد ياسين عمر الشيخ، ومن ثم على بقية الحضور.

بعد الانتهاء من مراسيم عقد القران توجه موكب العريس عائداً الى منزل إدريس. وما ان وصل حتى نحر الحاج عمر افندي احدى جماله، ليقوم إدريس بعده بالفقر ثلاث مرات على الذبيحة قبل الدخول للمنزل. واشتعل فناء المنزل بالزغاريد ودقات الطبول، والاهازيج التي تمجد العريس واهله. بعد ذلك مدت للحضور موائد الغداء، التي اختلفت نوعياً عن ماكان يقدم في السابق، اذ كانت تحتوي على الارز المفلفل بالهيل والقرفة مع كميات سخية من لحم الضان، بجانب الصحون المقعرة الشبيهة بتلك التي قدمت في بيت العروس، وهي مليئة بالبان البقر والابل. اما النسوة ومن بينهن السيدة ملوك عبدالقادر فقد واصلن غنائهن ورقصهن، دون ان يسمحن بدخول الرجال اليهن، خاصة الشباب منهم.

بعد صلاة العصر توجه الحاج عمر افندي بصحبة بعض من عقلاء قرية الشيخ حليب، وبعض من اقرباء واصدقاء إدريس محمد صالح جابر الى بيت السيد ياسين عمر الشيخ، وذلك لاحضار العروس. وما ان وصلوا حتى استقبلوا بالترحاب، وقدمت لهم فناجين القهوة المليئة بـ "قهوت حليت". بعد ذلك استأذنوا لآخذ عروسهم، التي سبق وان جهزت وتزينت بحلي عرسها، قبل وصول الحاج عمر افندي ومرافقيه. وما ان أذن لهم حتى اسرع احد المرافقين باحضار الجمل الذي سوف يحمل العروس الى بيت زوجها.

قفز الحاج عمر افندي ليستقر فوق ظهر الجمل المجهز لنقل العروس، برشاقة فائقة استحسناها الجميع. وما ان تأكد بان الهودج مثبت في مكانه الصحيح فوق ظهر الجمل، حتى اشار بيده لاحضار العروس. لا حظ السيد ياسين عمر الشيخ اشارة الحاج عمر

افندي، ليسرع في حمل ابنته وتسليمها له. ليقوم الحاج عمر افندي بعد ذلك بإجلاس العروس في حضنه، والامسك بها جيدا كي لاتقع، واسدل عليها ثوبا ناصع البياض حتى لا تظهر على المرافقين والمارة، وتتكشف امامهم. وسرعان مااستعوذ من الشيطان، وتمتم ببعض الآيات القرآنية، ووخز الجمل الذي نهض على الفور وبدأ في السير. ليردد الجميع:-  
- على بركة الله.

بعد اقل من نصف ساعة وصل الحاج عمر افندي ومرافقيه الى بيت العريس، حاملين معهم عروس إدريس محمد صالح جابر. وما ان لوحظ وصول الموكب حتى قام من كانوا في المنزل وهم يقرعون الطبول، ويرددون اناشيد الفرح والسعادة، مرحبين ومهللين بمقدم العروس. وفي لحظات انتزعت العروس من حضن الحاج عمر افندي، وهي محمولة على ساعدي اخ العريس أحمد محمد صالح جابر، ليضعها بدوره في المكان المخصص لها في البيت. واستمر العرس لاسبوع من الزمن، والكل يرقص ويغني من غروب الشمس وحتى طلوع فجر يوم جديد، والبعض الآخر من الشباب يقوم برعاية وتسلية العريس، وتقوم الفتيات بتسلية واضحاك العروس.

بعد ثلاث ايام من وصول العروس الى بيت زوجها ومع ظلمة الليل قام إدريس محمد صالح، وفق عادة اهل المنطقة بالدخول على عروسه، حيث وجدها وحيدة، وما ان لاحظته حتى طأطأت رأسها خجلا من زوجها، ورهبة من الشيء الموعود. القى عليها التحية، وبدأ بالتحدث:-

- كيف حالك ؟ هل انت بخير ؟ كيف وجدت حفل زفافنا ؟.

لم ترد عليه البتة، فعاجلها قائلا:-

- ما بك اتخجلين من بعلك ؟ سوف لن اكون غريبا عليك بعد اليوم.

كانت الأنسة فاطمة تعرف بان من احدى عادات اهالي قرية الشيخ حليب في مثل هذه المناسبة، ان يقوم بعضا من الشبان، وبعضا من الفتيات باللتصت على العروسين، لمعرفة هل كانت الفتاة تتحدث مع عريسها؟. وهل اسلمت له جسدها دون اي اعتراض او مقاومة ؟. واذا ثبت لهما من خلال التصنت بان العروسين منسجمين، فان الملامة تكون على العروس، لان ذلك يعني بان الفتاة كانت على علاقة معينة مع العريس قبل الزواج. ليؤدي

ذلك الى اعباء الفتاة وتشويه سمعتها، وجعلها حديث القرية. ومن اجل ذلك لم تنتشج فاطمة للرد على استفسارات إدريس خشية ان يسمعها المنتصتون وتصبح وسمة عار على عائلتها. حاول إدريس التودد مع عروسه، لكن دون فائدة. واخيرا قرر الجلوس بجوارها، ومحاولة لمسها. الا ان فاطمة انتفضت وحاولت ابعاده من الالتصاق بها، وهي تقول:-  
- ارجوك ليس الآن.

رد عليها إدريس:-

- ولماذا ؟ اتخشين ان يسمعنا احدهم. انني متيقن من عدم وجود اي شخص يتتصت علينا، ولا يوجد ساهرا حتى اللحظة بإستثنائنا.

كان قلب فاطمة يدق بصورة غير مألوفة، اذ كانت تخشى ان لا تكون عرضة لشماتة اهل القرية، اذا ما تجاوزت مع زوجها ولبت رغبته بسهولة في النيل منها. فجأة تذكرت حادثة ابنت خالتها سعدية، التي اغمي عليها عندما قام زوجها في ليلته الاولى بادخال قضيبه في احشائها، ولم يبارحها الا عندما تدخلت حماتها، وانقذتها مما هي عليه، وهي تسبح في دمائها. وما ان ابعدت تلك الذكرى عن ذهنها، حتى عاد قلبها يخفق من جديد، واحست والعرق يتقاطر من وجهها، وازداد خوفها من ان لا تصاب بمكروه اذا مارست الجماع مع زوجها.

اما إدريس فقد كان في واد آخر. ولم يكن يهيمه سوى كيفية الحصول على ما يريد من زوجته. اذ ان اصدقائه سوف يستفسرون منه لاحقا كيف كانت العملية ؟ وهل كانت هناك مقاومة من قبل فاطمة، ام استسلمت له كما تستسلم النعاج لجلاديهما ؟. وكان مصرا على تحقيق هدفه من اول ليلة يدخل فيها على فاطمة. فحاول مرارا الالتصاق بها وضمها الى صدره العاري، دون فائدة، وعندما ادرك استحالة ذلك لجأ الى اتباع اسلوب التودد قائلاً:-

- يافاطمة انت زوجتي على سنة الله ورسوله. وهذا مايعلمه الداني والقاصي. ومن الواجب الحصول على حقي.

وتذكر اصدقائه فادرك ليقول:-

- علينا اتمام العملية الآن، اذ ان الجميع الاقرباء والاصدقاء في لحظة ترقب لسماع نجاحنا او فشلنا في امتحان العملية.

لم تهتم فاطمة بما كان يقوله إدريس، وكان همها منصبا في الألم الذي يمكن ان تحدثها لها ممارسة العملية الجنسية. وبينما كل منهما يسرح في تفكيره، سمعا نحنحة السيدة ملوك عبدالقادر كإشارة للدخول اليهما. فاسرع إدريس بارتداء قميصه، معزيا نفسه بأنه لم يوفق في تحقيق هدفه، بسبب مداهمة الصباح له، وليس لانه عجز عن اقناع فاطمة من النيل منها سواء رضيت او لم ترضى.

دخلت السيدة ملوك عبدالقادر الى مخدع إدريس وهي تحمل صينية الافطار المكونة من لقمة القاضي بالعسل البلدي، وعصيدة دقيق القمح مع كوبيين من حليب الماعز. وما ان دخلت وقبل ان تلقي على الزوجين تحية الصباح، التفتت الى فراش إدريس ووجدته كما فرشته في الليلة الماضية. فادركت بان ابنها لم ينل من زوجته بعد. وتظاهرت وكأنها لم تهتم لتقول:-

- صباح الخير يا اولاد، هذا طعام افطاركما صنعته لكما قبل قليل.

قام إدريس وكالعادة بحمل ابريقه واتجه للخلاء لقضاء حاجة الصباح. ثم توضأ وادى صلاة الفجر، وسلم على والدته. وتناول قليلا مما احضرته من طعام ليترك ما تبقى لزوجته. وسرعان ما انضم الى اصدقائه الذين كانوا في احر من الجمر لمعرفة ماذا حدث ليلة البارحة. وخاب املهم، اذ لم يلاحظوا على وجه صديقهم امارة الانتصار.

في اليوم التالي من المحاولة الاولى، دخل ادريس على زوجته وكله اصرار في الحصول على ما يريد. وقد تتبعت فاطمة لذلك، وبدأ خوفها يزداد، وفكرت قليلا في كيفية الخروج من الورطة. فبادرت إدريس قائلة:-

- الطقس حار هذه الليلة اليس كذلك ؟.

ولإظهار الجدية في ما كانت تقوله، اردفت قائلة:-

- هل اقوم برش ارضية الغرفة بالماء، عل ذلك يخفف عنا وطأة الحر؟.

تجاهل إدريس كلام فاطمة، وعلى عكس ما كانت تشعر به، فانه لم يشعر بحرارة طقس الغرفة. بقدر ما شعر بدفئ زوجته بمجرد ما ان لامس يدها. وسرعان ما سرى الدم في عروقه، ليحس بنوع من القشعريرة، وكأن نمل قرية الشيخ حليب يزحف على جسده. وانتصب كل شئ فيهِ، شعر رأسه وذقنه، وحتى .... وبكل جرأة استلقى على الفراش صاحباً اليه زوجه. وأحس وكأن الدنيا تدور به عندما إستنشق عبير فاطمة وهي على حضنه.

لم تمر ثواني حتى احست فاطمة وكأن شخصا ما يتتصت عليهما. وكانت صادقة في حدسها، اذ ان التي كانت تتتصت لم تكن سوى السيدة ملوك عبدالقادر. وقالت بصوت هامس تخاطب زوجها:-

- هناك شخص ما يتتصت علينا، ارجوا ان تأجل ماتريده ليوم غد.

تظاهر إدريس وكأنه لم يسمع ما همست به فاطمة. وراح يبعثر اصابعه دون ان يلوي على شئ، على طول جسد زوجته، لتتوقف تلك الاصابع، وتستريح لبرهة على احد نهدي الأنسة فاطمة ياسين عمر الشيخ. ومن ثم تواصل تلك الاصابع زحفها وهي تتدحرج الى ان وصلت المنطقة المحظورة، لتستفيق فاطمة من حالة اللاوعي التي اصابتها منذ ان بدأت اصابع إدريس تلهو على تقاطيع جسدها، لتقول بصوت انثوي رقيق:-

- إدريس ارجو تأجيل ذلك ليوم غد.

رد عليها إدريس:-

- ما بك ؟

- اني احس بدوار في رأسي.

- هل آتي لك بكأس من الماء ؟.

قالت:-

- لا احتاج الى ماء، كل الذي اريده هو تأجيل العملية لفرصة اخرى.

واصلت اصابع إدريس مداعبتها برقة لجسد فاطمة الطري. ودون سابق انذار وجدت فاطمة زوجها مستلقيا بكل جسده عليها، باذلا كل ما يستطيع من جهد، لابعاد ساق فخذها الايمن عن الفخذ الايسر، ولم تحس وإلا بألم حاد وحارق من شئ صلب خرق جذعها، مفرغا مابه من سائل حار ولزج في احشائها، وبشهقة عميقة من زوجها لم تعرف معناها وأسبابها الا بمرور الايام. ودون ان تدري غرست اظافرها في وجهه وصدر إدريس، لتصيبه بجروح وخدوش، ولتأكد على زوال بكارتها.

قام إدريس من نومه على صوت آذان مؤذن القرية، ليجد فاطمة مضطربة ومرتعدة، وهي تحس بألم في اسفل بطنها. طبطب على ظهرها قائلا:-

- لا تخافي لقد تمت العملية بنجاح.



لم يمض الوقت طويلا حتى استأذنت السيدة ملوك عبدالقادر للدخول على ابنها وزوجته، وما ان لا حظت بتبعثر فراش ابنها، حتى ركزت نظرها على لحاف الفراش لتشاهد فيه بعضا من بقع الدماء الصغيرة المتناثرة هنا وهناك على ارضية لحاف ابنها إدريس، حتى اطلقت العنان لزغاريدها، معلنة عفة وعصمة زوجة ابنها لأولئك الذين لازلوا نياما من الاقرباء والاصدقاء.

اسرعت السيدة ملوك عبدالقادر خطاها، واحضرت جردلا مليئا بالماء، وبه بعض من حبوب ذرة الماشيلا، وقليل من السكر والملح، لتطلب من ابنها ان يستحم به. وذلك كعرف يتبع لدى ابناء قرية الشيخ حليب، كدليل على طلب الذرية الصالحة للزوجين، وكأمنية طيبة وحظا سعيدا لهما.

بعد ان فرغ إدريس من الاستحمام توجه كالعادة الى اصدقائه واقربائه الذين كانوا في انتظاره لتناول طعام الافطار. ولم يتجراً اي من الحاضرين من الاستفسار عن ماجرى ليلة امس، اذ شاهدوا ما اصيب به وجه زميلهم إدريس محمد صالح جابر من جروح، دلالة على آثار الشد والجذب بين الزوجين. وتمنى كل واحد منهم في قرارة نفسه، بان يحالفه الحظ السعيد كما حالف عريسهم، في الحصول على فتاة عفيفة ومعصومة، مثل ابنت السيد ياسين عمر الشيخ.

وبعد تناول طعام الافطار، تمنى كل من الحاضرين دوام الصحة لإدريس وفاطمة، لينفروا ويعودوا من حيث اتوا، معلنين بذلك انتهاء مراسيم الزواج بعد اسبوع كامل من الرقص والغناء حتى طلوع الفجر.

وهكذا طويت صفحة زواج ادريس، لتتواصل هموم قرية الشيخ حليب وعموم إرتريا على وتيرة تطورات الأحداث الدولية وتداعياتها المباشرة على البلاد.

(7)

في نهاية العام 1946م عمت حالات الفوضى والارتباك ارجاء ارتريا، وادى هذا بدوره الى انقسام القوى السياسية بين مطالب ومؤيد للاستقلال، وبين معارض له ومطالب بالوحدة مع اثيوبيا. وقد لعبت التدخلات الخارجية، وتدخلات الامبراطور هيلي سيلاسي دورا كبيرا في اشغال الوضع السياسي الارتري العام، واحتقانه مما ادى الى احداث شرح كبير بين مختلف القوى والاتجاهات الشبه سياسية التي ظهرت في تلك الفترة.

كانت القوى السياسية وعلى الرغم من الاختلاف الحاد بينها، ترى ضرورة الاتفاق على عقد اجتماع عام لبحث مستقبل البلاد. فالذين كانوا يرون بان مصلحتهم تقتضي الارتباط باثيوبيا، ومن ابرزهم رئيس "جمعية حب الوطن" الفيتوراري قبر مسقل ولدو والسيد تدلا بايرو، كانوا يرون بان عقد اجتماع عام سوف يمكنهم من الاستحواذ على تأييد اكبر عدد ممكن من الارتريين وبصورة خاصة تأييد اعداد كبيرة من اتباع الطائفة المسيحية، خاصة وانهم كانوا يشعرون بانهم يملكون تأييد الامبراطور هيلي سيلاسي، ويحسون بمباركة الكنيسة الارثوذكسية.

وكان الجانب الآخر والذي كان يطالب بإخضاع ارتريا لإنتداب الامم المتحدة لفترة زمنية، ومن ثم منحها حقها في الاستقلال الوطني ومن ابرزهم في تلك الفترة السادة جيلاني باشا الحسين من اقليم بركة، وازماتش أسفها أسمروم من اقليم سراي، والدزماش حسن على والسيد ولدآب ولدمازيام من اقليم حماسين، والسيدان محمد نور حسن نائب وحسن كردي من اقليم سمهر، والباشا ناصر ابوبكر والرأس تسما اسمروم من اقليم اكلي قوزاي وغيرهم. كانوا يرون بان عقد اجتماع عام سوف يمكنهم من الوصول الى صيغة تراضية بين كل الارتريين، خاصة الوصول الى حل وسط مع الاتجاه المدعوم من قبل اثيوبيا، مما يمكنهم من التغلب على اطماع الامبراطور هيلي سيلاسي، ويمكن من ناحية ثانية، حسب اعتقادهم، من المحافظة على وحدة ارتريا وشعبها من الانقسام.

كان الاتجاهان السياسيان العامان غير مؤهلان بالمرّة لرسم مستقبل الوضع السياسي للبلاد. فقد كان الاتجاه المدعوم من قبل اثيوبيا، يتحرك وفقا لقاعدة مصالح فئات طبقية ذات طابع واصول دينية مسيحية النزعة، محددة في كبار موظفي العهد الاستعماري البريطاني، وكبار زعماء الكنيسة الارثوذكسية، واصحاب الاراضي والوجهاء.

اما الاتجاه الآخر فهو ايضا لم يسلم من النزعات الدينية الاسلامية التي غذاها المستعمر البريطاني، وكان يهدف الى تحقيق مصالح فئات معينة داخل المجتمع الارترى، مثل تحقيق مصالح الطبقة الوسطى من التجار وانصاف المتعلمين، وزعماء القبائل، والطامحين للجاه والسلطة، والساعين للحصول على امتيازات واحتكار الاراضي في المرتفعات الارترية وغيرهم.

وعلى الرغم من ان اكثرية زعماء ارتريا ورؤساء مشايخها الذين كانوا يطالبون بالاستقلال الفوري، او البقاء لحين استتباب الوضع تحت انتداب الامم المتحدة لسبب او آخر، فانهم كانوا عاجزين تماما من تحقيق مطالبهم. ويعود ذلك للعديد من الاسباب ومن ابرزها عدم الانسجام بين الطموحات والرغبات الشخصية وبين متطلبات خلق الشخصية الوطنية الارترية، والتشردم في مجموعات ذات طابع قبلي وطائفي، وعدم القدرة على مواجهة ومن ثم امتصاص تحركات واطروحات المدعومين من قبل اثيوبيا، بالاضافة الى تجاهل الادارة الاستعمارية البريطانية لمطالبهم، ووقوفها السافر مع الاتجاه المطالب بتحقيق المصالح الاثيوبية في ارتريا.

انعكس كل ذلك وبصورة سلبية على جموع المواطنين، من امثال ادريس محمد صالح جابر، واسماعيل زوي عمريت وصديقهما حقوص ارعدوم. وازداد القلق واخذ الكل يعكس رغباته وأمانيه بالاسلوب الذي يروق له. فالبعض كان يرى ضرورة القصاص من أولئك الذين يمالؤون رغبات اثيوبيا في الحاق ارتريا، والبعض الآخر كان يطالب بانقاذ ما يمكن انقاذه عبر توحيد الكلمة، وتحكيم العقل.

في احدى ايام سبتمبر من عام 1946م، وبينما كان اسماعيل زوي عمريت يأخذ قسطا من راحة الظهيرة وهو مستلقيا كالعادة تحت احدى اشجار النيم الوارفة الظلال المنتشرة على رصيف ميناء مصوع، لاحظ صديقه حقوص ارعدوم وعلى غير عادته يسرع الخطى قادما اليه. فاستبشر خيرا وانتظر قدوم صديقه.

- ما بك يا حقوص، ما الامر ولماذا الركض ؟

التفت حقوص ارعدوم يمينا ويسرى خوفا من ان يراقبه احد اعوان هيلي سيلاسي العاملين في الميناء، ليقول:-

- لقد تمكن اعوان هيلي سلاسي من اشعال الاضطراب في مجتمعنا. فهاهم يهاجموننا ويرشقوننا باقبح الالفاظ، ويتوعدون بنا شرا، لا لشيئ إلا لاننا لم نفق معهم، ومع زعيمهم هيلي سيلاسي.

نهض اسماعيل من مرقدته:-

- وما الجديد في الامر، علينا الصبر والمثابرة، وجمع شمل اهلنا للانتصار على أولئك الاوغاد.

لم يكن حقوص ارعدوم متقاتلا:-

- كيف وباي الطرق يمكن ان نجمع شمل اهلنا وقد تمكن منهم الانجليز، واخذوا يقسمونهم كما يقسم الرغيف. ان اهلنا ياسماعيل غير قادرين ليس في مواجهة تحرك اعوان ومؤيدي هيلي سيلاسي، بل حتى في رص صفوفهم. فهم متشرذمون في مجموعات ذات طابع قبائلي وطائفي.

لم يحبذ اسماعيل مقاطعة صديقه حقوص ارعدوم، فقد لا حظ فيه امارات الغضب من ناحية والخوف من المجهول من ناحية ثانية، فقرر عدم مقاطعة حديثه، بل تركه حتى يفرغ ما في نفسه.

- ان اهلنا غير قادرين .... فهم يواجهون ثلاث اعداء يادريس.

- ومن هم هؤلاء الاعداء ؟

سؤال طرحه اسماعيل على صديقه.

لم يتأخر حقوص في الرد، اذ قال وبصوت منخفض وكأنه يخشى ان يسمعه احد:-

- اننا نواجه اعوان هيلي سيلاسي، وهم اكثر قدرة منا، فهم يملكون الاموال التي سخرها لهم هيلي سيلاسي دون حسيب او رقيب، لينثروها كما يحلوا لهم في شراء الذمم، كما انهم يملكون انواع متعددة من الاسلحة التي جلبت اليهم من اديس ابابا، بهدف استخدامها ضد كل من يعترض على مشيئة هيلي سيلاسي، وهذا هو العدو الاول. اما العدو الثاني فانه يتمثل فينا نحن ابناء هذه البلاد، اننا تحولنا الى عدو لانفسنا دون ان ندري. اذ اننا غير موحدين، بل منقسمين على انفسنا، ونرتاب من بعضنا البعض، ولازلنا اسرى تناقضاتنا القبلية والطائفية. اما العدو الثالث فهم الانكليز الذين لا يهتمون سوى بتحقيق مصالحهم الاستعمارية.

استمع اسماعيل لما كان يقوله صديقه حقوص اردوم باهتمام بالغ وهو يأمن على كل ما قاله، وفجأة انتفض:-

- ان كل ما قلته صحيح، الا ان هذا لا يجب ان يهبط من معنوياتنا، فنحن اصحاب حق.

واردف قائلاً:-

- اسمع يا حقوص اننا في وضع حساس، وعلينا القيام بما يمليه علينا الواجب. لقد سمعت يوم امس الحاج عمر افندي وهو يتحدث مع جاره السيد عبدالله طول قائلاً، "ان العديد من زعمائنا وعلى رأسهم الشيخ ابراهيم سلطان على، والسيد ولدآب ولدماريام يخططون للقاء الفتوراري قبرمسقل ولدو رئيس جمعية حب الوطن المؤيدة لاثيوبيا، بهدف الخروج من ازمة الثقة التي نعاني ومنها، وبحث مستقبل بلدنا".

ما ان سمع حقوص اردوم ذلك حتى احس بالارتياح الشديد:-

- اذا ما هو المطلوب منا.

لم يتعجل اسماعيل بالرد، بل اكتفى بالقول:-

- علينا التفكير في ما يجب ان نقوم به، وعلينا ان ندرك باننا في وضع لا يحسدنا عليه احد. يجب ان نتحلى بالصبر وبالعزيمة الفائقة. علينا القيام بالتحرك السريع والجاد، اذ ان الوقت يمضي وهو في غير صالحنا.

مر الوقت سريعاً دون ان يتمكن الصديقان من وضع اي تصور لما يجب ان يقوما به. وبينما هما يغوصان في تفكير عميق، داهمهم رئيس احدى مجموعات عمال الميناء، وبصوت جهوري:-

- ماذا تفعلان؟ لقد انتهت فترة استراحة الظهر، عليكم التوجه رأساً الى اعمالكما.

تغامز الصديقان وهي اشارة متعارفة بينهما، لمواصلة حديثهما بعد الانتهاء من اعمالهما في السادسة مساءً. وما ان اعلن عن انتهاء العمل حتى سارع الصديقان بالتوجه الى بوابة الخروج، والجلوس في احدى المقاهي المنتشرة قبالة بوابة دخول الميناء.

انزوى الصديقان في احدى زوايا مقهى السيدة تبلس، ولم تمر برهة حتى قدمت اليهما صاحبة المقهى وهي تتمايل بغنج كغصن البان كعادتها كلما ابصرت اسماعيل قائلة:-

- ماذا اجلب لكما؟

سارع اسماعيل بطلب كوبين من الشاي، دون ان يسقط عينيه من جسد السيدة تلبس الممشوق والمغربي، والذي كثيرا ماكان يتلذذ ويتمنى الوصول اليه كلما قدم للمقهى.

لم يهتم حقوص ارعدوم بقدوم السيدة تلبس، اذ سرعان ماقال:-

- ما العمل يااسماعيل ؟ ماهو المطلوب منا ؟ وكيف السبيل الى تحقيق وحدة الصف؟.

احس اسماعيل وعلى الرغم من بشاشة السيدة تلبس، ومحاولة اغراءاتها المتعمدة، وكأن سقف المقهى يتهاوى على رأسه من شدة ما اصابه من صداع دائري، والذي غالبا ما كان يعاني منه في حالات الضيق. وادرك بان مقهى السيدة تلبس الممتلئ بالزبائن من كل حذب وصوب، ليس هو بالمكان المناسب لخوض نقاش جاد يتعلق بمستقبل البلد فاقترح:-

- ان المكان غير مناسب لمواصلة حديثنا. وعلينا الذهاب الى دكان صديقنا ادريس محمد صالح جابر، للتشاور واشراك صديقنا ادريس.

لم يعترض حقوص على اقتراح زميله، وبسرعة البرق ارتشف كوب الشاي دفعة واحدة، وتوجها رأسا الى دكان صديقهما المشترك ادريس.

- مساء الخير ياادريس.

قالها اسماعيل بنبرة تتم عن الود والصدق.

رحب ادريس بصديقيه، واسرع في جلب ابريقا من الماء البارد ليشربا منه.

بعد برهة شرح اسماعيل لصديقه ادريس مادار بينه وبين حقوص ارعدوم، وقبل ان ينتهي من حديثه عاجله ادريس قائلا:-

- لم يعد خبر اللقاء المزمع عقده بين مختلف الزعماء سرا على احد. وبدأ الناس يستبشرون خيرا باللقاء المرتقب بين السيد ولدآب ولدمازيام والفيتوراري قبر مسقل ولدو.

واردف قائلا:-

- الا ان المطلوب هو ليس عقد اجتماع بين السيدين ولدآب وقبر مسقل ولدو فقط، بل المطلوب وبصرف النظر عن التباينات والمشاحنات الشخصية والعامة التي تسيطر على مختلف زعمائنا، هو عقد اجتماع موسع يحضره كل الراغبين في الوصول الى اتفاق عام يكون مرضيا للجميع.

تحمس حقوص ارعدوم واحس بنوع من الطمأنينة من كلام ادريس، متمنيا سماع الكثير من آراء ادريس في هذا المجال وقال متسائلا:-

- ماهو المطلوب منا؟ وكيف يمكن ان نتحرك لانجاح الاجتماع المرتقب كل منا حسب قدراته وامكانياته؟.

لم يبخل ادريس على صديقيه بالحديث، اذ كان هو الآخر مهموما في كيفية تحقيق رغبة الاغلبية من الارتبيين، في عقد اجتماع موسع، والخروج منه بنتيجة مرجوة، اذ سرعان ما واصل قائلا:-

- علينا ترتيب اوضاعنا، واقناع الناس بضرورة تأييد ومباركة ما يجمع الشمل ويحقق الانتصار على مخططات ومآرب اعدائنا. وانني على ثقة باننا سوف نجد من يستمع الينا ويؤيد مطالبنا. اذ سبق ومنذ صباح اليوم وانا احث القادمين لشراء حاجياتهم، على ضرورة العمل باتجاه انجاح لقاء السيدين ولدآب وقبرمسقل ولدو.

توقف ادريس عن الكلام للحظة، وما ان ادرك وقع ماكان يقوله على الصديقين اللذين كانا في انسجام تام مع ماكان يسمعانه، استطرده مقترحا:-

- انني ارى ضرورة الاشتراك في الاجتماع المزمع عقده بين السيدين في بيت جرجيس. قاطعه اسماعيل:-

- من المهم ان نشترك في الاجتماع، الا ان العقبة هي اننا سوف لن نتمكن من حضوره. اذ ان من المستحيل علينا ترك اعمالنا واسرنا والتوجه لحضور الاجتماع.

لاحظ اسماعيل بان حواجب زميله ادريس بدأت بالنقوس، وهي اشارة تتم عن عدم ارتياح او موافقة ادريس لاي شئ لا يستصيغه. فاستدرك قائلا:-

- يمكننا ان نتفق على ارسال واحد منا لحضور الاجتماع المرتقب، ويأتي لنا بالنتائج التي توصل اليها اجتماع بيت جرجيس.

ادرك حقوص ارعدوم بانه ولأسباب متعددة سوف لن يتمكنوا جميعا من الاشتراك في اجتماع بيت جرجيس. فهم مرتبطون باعمال لا تسمح لهم بالابتعاد عنها ولو ليوم واحد. بالاضافة الى ذلك فانهم سوف يثيرون شكوك الكثيرين في حالة توجههم بشكل مشترك. واحس بان المعني بالتوجه لحضور الاجتماع لم يكن سوى شخصه. وبسرعة مذهلة بدأت فكرة ان يتوجه الى بيت جرجيس نيابة عن زملائه تختمر في ذهنه. فهو اكثر معرفة من زميليه

بالطرق التي تؤدي الى بيت جرجيس بإحدى ضواحي أسمر. وهو يجيد لغة اهل المنطقة ويعرف الكثيرين منهم باعتباره واحدا منهم. كما ان باستطاعته التمويه على اعوان هيلي سيلاسي، اذ يمكنه التوجه اولا وبدون مصاعب الى قرية معلو القريبة من ضاحية بيت جرجيس لزيارة عمته السيدة لؤول والمبيت معها، ثم يعرج على مكان الاجتماع المرتقب دون ان يثير شكوك وريبة ما يعتبرهم بالاعداء. فقرر المبادرة مقترحا على اقرانه:-

- انني على اتم الاستعداد للتطوع والذهاب الى بيت جرجيس.

انبهر كل من ادريس واسماعيل بمبادرة زميلهم، ولم يتمالك ادريس من الانتظار اذ قال:-

- انني معجب بمبادرتك، وكعهدي بك فقد كنت ولازلت صادقا مع نفسك ومعنا.

اما اسماعيل الذي كان هو الآخر معجب بمبادرة زميله، لم يستطع سوى قول:-

- رافقتك السلامة ياخي .



(8)

ودع حقوص ارعدوم اصدقاءه في مصوع، وبعد رحلة مضنية استغرقت منه حوالي اثني عشر ساعة مشيا على الاقدام، وصل في السادسة مساء مثلما خطط تماما الى بيت عمته لؤلؤ في قرية معلو، وجدها تعد قهوة المساء، ومعها ابنة الجيران ذات السبعة عشر عاما. وما ان شاهدته قفزت من مكانها وقلبا يخفق بشدة وكادت تطير لتحتضن ابن اخيها الذي غاب عنها قرابة الثلاثة اعوام.

لم تقتصر الفرحة على السيدة لؤلؤ بل شملت ايضا زوجها السيد نجاش ودي اسفها. وهو فلاح بسيط لم يهتم كثيرا بالسياسة، وصراعات الاطراف، بقدر اهتمامه بزراعة المحاصيل النقدية مثل الطماطم والبطاطس وغيرها من الخضروات التي تشتهر بها قرية عدي معلو، ويقوم بين الفينة والاخرى بتسويقها الى العاصمة اسمرأ، ليستفيد من عائدها في تغطية مصاريف اسرته.

كان حقوص واثناء تبادل السلام والتحايا، والاستفسار عن احوال الأهل مع عمته وزوجها، يسترق النظر بين الحين والاخرى على ترحس ابنة جيران عمته، وما ان تلاحظه حتى يحول عينيه عنها. وكعادة اهل قرى مرتفعات ارتريا طلبت السيدة لؤلؤ من ترحس التي كانت جالسة بالقرب منها، ان تقوم باحضار الماء وسكبها على قدمي ابن اخيها عل ذلك يساعد على ازالة اتربة الطريق العالقة بهما.

تناولت ترحس ابريق الماء وتوجهت الى حقوص، الذي احس بقشعريرة تدب في جسمه من رأسه حتى قدمية. واخذ قلبه يخفق وبصورة غير معهودة، واحس بحبات العرق وهي تتدحرج من صدغيه، وسرعان ما قام بمسحهما حتى لا تتساقط على منكبيه.

جلست ترحس مباشرة امام حقوص، الذي كان جالسا على المقعد الخشبي التقليدي لاهالي المرتفعات، والذي يعرف باسم "المنبر"، وبدأت بصورة تدريجية تصب كميات قليلة من الماء على قدمي حقوص الممدوتتين على الطست المعد لغسل الارجل. وبينما هو يغسل قدمية، وخلال لحظات اُكتشف جمال وجه ترحس القمحي الذي يشع نضارة وحيوية. وبدون تردد سمح لعينه بالتجوال الحر على الصدر العامر الذي برز منه ثديان نافران لا يتجاوز حجم الواحد منهما قبضة يده.

ما ان انتهي حقوص من غسل قدمية حتى اسرعت عمته وناولته قدحا مليئا من السوا (1)، ووجبة العشاء المكونة من خبز الإنجيرة (2)، رش فوقه كمية من العدس المطبوخ بالقلفل الحار.

بعد الانتهاء من طعام العشاء استأذن حقوص عمته وتوجه رأسا الى المكان الذي خصص له للمبيت. الا ان صورة ترحس لم تفارقه، واخذ يتلذذ بجمالها، ويتمنى تقبيل ذلك الوجه السمح. وبينما هو سارح بخياله، سرعان ما استغرق في نوم عميق لم يفق منه إلا في الخامسة صباحا بصيحات الرعاة على بهائمهم استعدادا للتوجه الى المراعي المألوفة. وما ان افاق حتى شاهد زوج عمته واقفا عند رأسه وهو يردد على مسامعه تحية الصباح، حاملا بين يديه ابريقا مليئا بحليب من بقرته المفضلة، وقطعة من خبز الإنجيرة، وضعهما امامه طالبا منه تناول طعام افطاره. وسرعان ما قال له:-

- انني اريد التوجه الى العاصمة اسمرا لشراء بعض حاجيات المنزل من زيت وسكر ودقيق وخلافه، وسوف اعود سريعا في حوالي منتصف النهار، فاذا تود مرافقتي فانني سوف اسعد بذلك.

لم يدري حقوص بماذا يجب ان يرد على زوج عمته. وبعد برهة قرر ان يفتح السيد نجاش بالحقيقة، خاصة وانه يثق فيه. وبعد ان افرغ محتويات فمه قال:-

- الحقيقة لست بصدد الذهاب الى اسمرا، وانني لم آت لذلك. بل انني اقصد التوجه الى بيت جرجيس.

ارتسمت علامات التعجب على وجه السيد نجاش، اذ انه لم يكن يتصور بان حقوص يمكن ان يهتم بالسياسة.

- انني اريد ان اشارك في الاجتماع المزمع عقده في بيت جرجيس، والعودة سريعا الى موقع رزقي في مصوع.

قالها حقوص محاولا تبديد علامات التعجب التي لاحظها على زوج عمته.

---

(1) السوا هو شراب محلي مسكر في حالة الافراط منه، يصنع عادة من خبز الإنجيرة المصنوع من حبوب الذرة الرفيعة وفي بعض الاحيان من حبوب القمح، له حموضة مستحبة، ما ان يتناوله المرء حتى يحس بنوع من التخدير الخفيف، سرعان ما ينتهي مفعوله.

(2) الإنجيرة هو خبز محلي شفاف دائري الشكل يصنع عادة من حبوب الذرة، وفي بعض الاحيان من حبوب الطاف للميسورين.

كان حقوص يدرك بان هناك مسافة اكثر من ساعتين مشيا على الاقدام تنتظره للوصول الى مكان الاجتماع، وعليه الاسراع خاصة وانه كان يشاهد من موقع بيت عمته بعض المواطنين يسرعون الخطى، وهم يتوجهون نحو التلال التي تشرف على بيت جرجيس. فلم يكن له من بد سوى توديع السيد نجاش وزوجته، وشكرهم على حسن ضيافته، طالبا منهما الدعاء له. وتوجه للحاق بؤلك الذين كان يشاهدهم من على بعد. وفي الوقت المناسب، اي في صبيحة يوم 25 نوفمبر 1946م انضم حقوص ارعدوم بالجمع الغفير الذي كان محتشدا في بيت جرجيس.

في العاشرة من صبيحة يوم 25 نوفمبر 1946م اجتمع القوم في بيت جرجيس. وعلى الرغم من الخلافات العميقة التي كانت تسيطر على مختلف الاطراف، فقد كان بينهما قاسم مشترك، وهو رفض تقسيم ارتريا بين السودان واثيوبيا، والمحافظة على استقلالها الداخلي، وضمان وحدتها الجغرافية والسكانية، الا انهم كانوا عاجزين تماما من التوصل الى اتفاق مشترك فيما يتعلق بمستقبل بلدهم. ولذلك لم يؤد اجتماع بيت جرجيس الى اي نتيجة، بل فشل فشلا ذريعا.

لم يكن حقوص ارعدوم مثله مثل العديد من المواطنين يتوقع ان لا يصل القوم الى اتفاق. وعندما احس بان لافائدة ترجى من الاجتماع، والحالة النفسية التي يعانى منها بسبب ذلك، لم يكن له من بد سوى العودة مسرعا الى مصوع وهو يتأبط خييات امله. وفي صبيحة اليوم التالي، توجه رأسا الى مكان عمله في ميناء مصوع. وما ان شاهده صديقه اسماعيل عمريت حتى اسرع اليه قائلا:-

- حمدا لله على وصولك الينا سالما.

كان اسماعيل الذي لم يكن يدري بفشل الاجتماع، على عجل لمعرفة ماتمخض عنه، ودون ان يعطي الفرصة لحقوص حتى للرد على تحيته، عاجله:-

- ما الاخبار انني على اجر من الجمر لمعرفة النتائج. هل توصل القوم الي نتيجة معقولة؟.

لم يكن مزاج حقوص ارعدوم رايقا للرد على زميله اسماعيل عمريت، واكتفى دون ان يلوي على شئ بالقول:-

- سوف احاول تلخيص نتائج الاجتماع عندما نتقابل مساء كالعادة.

انزعج اسماعيل من طريقة رد زميله، فهو بطبعه يريد معرفة ادق التفاصيل، حتى في المسائل الخاصة.

- انني اريد ان اعرف ماذا جرى؟ وعليك اخباري بذلك. فليس من المنطقي ان انتظر حتى يتم اللقاء بيننا.

اختر حقوق ان يواجه زميله بالحقيقة، فقال:-

- لم يتمكن الاجتماع من التوصل الى اي اتفاق يذكر؟ وقد انفض حتى دون تحديد موعد آخر للقاء. ولادري ما تخزنه الايام لنا.

صدم اسماعيل مما قاله حقوق، بل لم يصدق ما سمعه، ولم يدري ماذا يقول، وسرعان ما احمر وجهه، واخذت دقات قلبه تتسارع، وبدأ العرق يتصبب منه بصورة ملفتة. فأسرع حقوق قائلاً:-

- علينا الآن التوجه الى اعمالنا، حتى لا يقوم رئيس الدورية بقطع ارزاقنا. على امل ان نلتقي في السماء في تمام الخامسة عند دكان ادريس محمد صالح جابر.

التئم شمل الاصدقاء الثلاث حقوق، ادريس، اسماعيل عند دكان إدريس الذي لم يكن على علم بما تمخض عنه اجتماع بيت جرجيس. وما ان شاهد حقوق حتى استبشر خيرا، وقام على الفور باحضار ابريق الماء البارد، وطلب من الصبي صالح الذي كان يقوم بشراء بعض حاجياته من الدكان، ان يحضر له اربعة اكواب من الشاي من المقهى المجاور لدكانه. وما ان انتهى الاصدقاء الاربع من ارتشاف اكواب الشاي بدأ ادريس مثلما كان متوقعا، بالحديث:-

- خير يا حقوق، لم اتوقع حضورك سريعا. ماهي الاخبار وكيف كان الاجتماع؟

ساد الصمت، اذ لم يكن احدا باستثناء حقوق القادر على بوح ما يحمله من اسرار اجتماع بيت جرجيس. وبعد فترة ليست بالقصيرة، قام حقوق بكسر حالة الصمت والذهول التي سيطرت على المكان ليقول:-

- انني قادم اليكم من بيت جرجيس، بعد ان حضرت جلساته. لقد اشتركت في ذلك

الاجتماع المشؤوم حسب الاتفاق الذي تم بيننا، وليتني لم اشترك، اذ انني احس بالخجل من نفسي، ومن اولئك القوم الذين كنت اعتبرهم كبارا. لقد سقط القناع عن اولئك الكبار، ليس هذا فحسب بل سقط كل الاحترام والود الذي كنت اكنه لهم،

وبشكل خاص أولئك القساوسة والمتنفذين في طائفتنا المسيحية، لقد الحقوا بنا العار والخزي و ....

لم يتمكن حقوص من مواصلة حديثه، وبدأ يحس وكأن شيئاً ما يخنقه، وماعدت الكلمات تخرج من فهمه بالسلاسة المعهودة. وفجأة دخل في نوبة بكاء حاد. انزعج الاصدقاء، وساد المكان حالة من الكآبة، ليسرع ادريس ويأتي بكوب من الماء، عله يسعف في تهدئة حقوص.

ناوله ادريس كوب الماء وهو يقول:-

- اشرب ياخي وكف عن البكاء والنحيب الذين هما ليسا من شيمنا. وتذكر باننا قد عاهدنا انفسنا بمواجهة الاقدار التي تعترض طريقنا بكل شجاعة.

ما ان تناول حقوص كوب الماء البارد، حتى احس بالتحسن وادرك بان كلام ادريس نابع من قوة العزيمة والايامن. وان من الواجب عليه نقل حقيقة ماحدث في الاجتماع. وسرعان ما اعتدل في جلسته ليقول:-

- انها طامة كبرى ... لم يتمكن كبار القوم في بيت جرجيس من التوصل الى اي اتفاق. وكان المنتصر الوحيد في ذلك الاجتماع هو الامبراطور هيلي سيلاسي واعوانه.

لم يتمالك ادريس اعصابه، فقد استفزته العبارة، فطلب من حقوص توضيح ماجرى، ومن اشترك في الاجتماع، وكيف انهار بتلك السرعة. ادرك حقوص بان عليه الابتعاد تماما عن التلميحات واختصار الكلام، فقرر ان يسرد بداية ونهاية الحكاية :-

- في العاشرة صباحا وحسب الموعد المحدد، وصل الى مقر الاجتماع حوالي مايقارب الاربعين نفرا من مؤيدي الاستقلال، وعلى رأسهم الدجزماتش حسن علي، والسيد ولدآب ولدمازيام، والسيد ابراهيم سلطان وبرهانو احمدين، والسادة سهاي ابرها وقرنكئيل براخي ويوهنس سقاي، بالاضافة الى الكافلييري عمر سفاف. وما ان شاهدت هؤلاء حتى احسست بإرتياح تام. اذ انهم يعتبرون اولاً من كبار القوم، وقد اتوا ثانياً من مختلف المناطق ويمثلون الطائفتين الاسلامية والمسيحية، وفوق كل ذلك كانوا ينادون باستقلال ارتريا، ويرفضون الهيمنة الاثيوبية.

لاحظ حقوص بان ادريس على عجل لمعرفة بقية الحضور، فما كان منه سوى مواصلة سرده:-

- لم يأتي الجانب الآخر في نفس الموعد المحدد. واعتقد الكثيرون بان مؤيدي اثيوبيا سوف لن يأتون، واخذ الناس يتهامسون، وبينما نحن في حالة ترقب، قدم الى مكان الاجتماع اعداد غفيرة من مؤيدي حزب الاتحاد مع اثيوبيا، فاقوا في تقديري الثلاث ألف شخص، وهم يرددون شعارات تؤيد اثيوبيا، ويلوح البعض منهم بما كان يحمله من سلاح، وهم يدقون بأرجلهم حتى تصاعد غبار المكان.

استغرب ادريس، ولم يكن يتوقع ان يظهر مؤيدي اثيوبيا بهذه الاعداد الهائلة، خاصة حمل بعضهم للسلاح. واراد ان يستفسر من اين جاؤا بالسلاح؟ لانه وحسب علمه، لم تكن الادارة الاستعمارية البريطانية تسمح بحيازته.

- من اين اتى هؤلاء بالسلاح؟

لم يكن حقوص يعرف مصدر تسليح المؤيدين لاثيوبيا:-

- لا ادري من اين اتى اولئك النفر بالسلاح؟

واستردف قائلا:-

- تقدم الجمع كل من دجزماتش بيني براخي، وبلاتا دمساس ولدوميكائيل، والسيد جبر مسقل ولدو، ودجزماتش حقوص قبري تحيط بهم شلة من الشباب المسلحين والمتوترين. كان الناس مذهولين، بل اعترى الخوف بعضهم. اذ كانت هناك استقرزات مقصودة، وشتائم سوقية. بالاضافة الى ماكانت تمثله الشعارات التي حملها مؤيدي اثيوبيا من تهديد مبطن لكل من لا يرغب في الانضمام الى الاطروحات الاثيوبية. وازداد الجو تعكيرا عندما قام المسلحون باشهار اسلحتهم تجاه المجتمعين. وخشينا ان لا نصاب بمكروه من جراء رعونة أولئك المهوسين.

توقف حقوص قليلا لالتقاط انفاسه، بينما ظل كل من ادريس واسماعيل مسمرين في مقعديهما من هول ماسمعوا، واحسوا جميعا بنوع من الكآبة، ولم يكن يخطر ببال اي منهما ان تنردى الاوضاع بالصورة التي نكرها لهم زميلهم حقوص ارعدوم.

استعاد حقوص انفاسه ليتابع :-

- بعد ان هدأت رعونة المسلحين، قام البلاتا دمساس ولدميكائيل ليخطب في الجمع. وليته لم يفعل ذلك لكان اشرف له ولنا جميعا.

كانا ادريس واسماعيل في شوق لمعرفة ماذا قال البلاتا، ودون اعطاء الفرصة او اضاءة الوقت، انبرى اسماعيل ليقول:-

- ماذا قال البلاتا بحق السماء.

- خاطب البلاتا دمساس الجمع الغفير بأسلوب استعلائي غير لائق بشخص في مقامه. فهو اولاً لم يخاطب المجتمعين بصورة عامة، بل خاطب جزء منهم، اذ قال "على اخوتنا المسلمون الذين ينادون بالاستقلال عن اثيوبيا الام ان يكفوا عن ضلالهم". والحقيقة هو ان القوم لم يجتمعوا في بيت جرجيس بصفاتهم الطائفية، بل اجتمعوا كمواطنين ارتريين من اجل البحث عن مستقبل بلادهم.

ارتاح ادريس لكلام حقوص الى ابعد الحدود، واحس بنوع من الافتخار وعزة النفس، وكبر حقوص في نظره. وادرك حقوص بان العديد من الاسئلة لازالت تتراحم في ذهني زميليه، وان من الواجب عليه الاستماع اليهما والرد على اسئلتهما. ودون ابداء اي انزعاج واصل حديثه:-

- لم يكتفي البلاتا دمساس بما قاله، بل حاول الاستخفاف بالناس اذ قال "عندما يرغب المرء في الانضمام الى اسرته (ابيه وامه) فانه لا يطالب بان تعطى له الضمانات. وان هذا يجب ان ينطبق علينا، اذ ان من المفترض ان لا نطالب بالضمانات للالتحاق بأمننا اثيوبيا". واضاف دمساس وبصورة متهكمة يطغى عليها التهديد المبطن قائلاً "ومن هنا فانه انصح اخوتنا المسلمين بالكف عن المطالبة باستقلال ارتريا، والالتحاق بنا نحن الراغبون للانضمام الى اثيوبيا. والا فسوف تكون النتائج وخيمة".

وحول رد فعل بعض الحاضرين من كلمة البلاتا دمساس، اوضح حقوص:-

- ما ان انتهى البلاتا دمساس من حديثه حتى عج المكان بالتصفيق الحاد، ودقت الطبول، وتعالق الصيحات تعبيراً عن الاستحسان من قبل اتباع السيد دمساس. وعلى الفور قام احد الزعماء وهو السيد قبر مسقل ولدو بالثناء على كلام البلاتا، واخذ يكيل له المديح بطريقة تتم عن نفاق مكشوف.

ويواصل حقوق حديثه، بينما زميليه يستمعان اليه بكل اهتمام:-

- حتى تلك اللحظة وعلى الرغم من سلبية حديث البلاتا دمساس، الا ان الوضع كان هادئاً. ولم يعكر صفو المكان، الا عندما بدأ السيد تدلا بايرو وبصورة حادة بالتهجم على السيد ولدآب ولدماريام، عندما قال: "انني لا اريد التحدث عن الآخرين، بل سوف اكتفي بتوجيه الكلام لولدآب. فهذا الرجل ليس واحدا منا، فهو من التجري، ولا يحق له الحديث عن مصير بلدنا، كما لا يحق له المطالبة باعطاء الضمانات لبلدنا". اندهش الحضور، ولم يكن اي من الحاضرين يتوقع ان تصل الامور الى هذا المستوى من المكايده. فالسيد ولدآب ولدماريام مشهود له بالاخلاص لارتريا، وقد عمل الكثير من اجل توضيح المطالب الارترية. فلو كان تجراويا كما اوحى بذلك السيد تدلا بايرو، لما كان بمقدور السيد ولدآب ولدماريام القيام بالعمل الجاد لمصلحة اهلنا وبلدنا، بل لما امكن له الحضور حتى للاجتماع، وتبوء مكانه بين زعماءنا وقياداتنا.

اندهش كل من ادريس واسماعيل، وبدا لهم وكأن الامور لم تكن كما توقعونها. فهم يسمعون الكثير عن السيد ولدآب ولدماريام، اكثر من سماعهم بانجازات او حتى اخفاقات السيد تدلا بايرو. ولم يتوقعوا ان يناقش القوم انسابهم، وانتماءاتهم العرقية. فأستهجنوا ما نقل لهم عن السيد تدلا بايرو. ومرت اللحظات دون ان يستفيقوا من حالة الاندهاش مما روي لهم. وفجأة واصل حقوق كلامه:-

- ما ان انهى تدلا بايرو حديثه، حتى عم المكان حالة من الذهول، سرعان ما تحول الى هرج ومرج، بين مؤيد لما قاله تدلا بايرو، وبين معارض له. إلا درجة ان ظهرت بعد الاصوات من جانب المؤيدين للاستقلال تطالب بادانة ما تفوه به تدلا بايرو، وآخرون يطالبون برفع الاجتماع، والعودة بعد ان تهدئ النفوس.

انتفض ادريس:-

- ليس من حق تدلا بايرو او غيره ان يتناول على السيد ولدآب ولدماريام، او يشكك في ارتريته. وحتى لو افترضنا جدلا بان السيد ولدآب هو من سكان التجري، فما هو العيب في ذلك. وكان الاجدر بتدلا بايرو التحدث بما يفيد ويسعى الى انقاذ ما يمكن



انقاذه من حالة الفوضى السياسية التي تسيطر على بلادنا، بدلا من التشكيك في أنساب الحاضرين.

أيد إسماعيل ما قاله ادريس، وازداد:-

- حسب اعتقادي لم يلتئم شمل الحاضرين في بيت جرجيس من اجل البحث عن انساب الحاضرين، بقدر ما التئم من اجل البحث عن المستقبل السياسي لبلادنا. ومن هو تدلا بايرو حتى يقول ما قاله للسيد ولدآب ولدماريام؟.

ارتاح حقوص لاضافات زملائه، اذ احس باهتمامهم، وتشجع ليقول:-

- ان تدلا بايرو خصم عنيد للسيد ولدآب ولدماريام. وان خصومته تمتزج فيها طموحات الحصول على رضاء الامبراطور هيلي سيلاسي، وتنفيس عقدة عدم انتماء اهله لارتريا.

لم يدرك ادريس ما عنى به حقوص.

- لم افهم ماذا تعنى "بعقدة عدم انتماء اهله لارتريا؟".

فكان رد حقوص:-

- يقال بان جد السيد تدلا بايرو لم يكن من مواطني القرية التي سكن بها، بل اتى اليها من منطقة قوجام الاثيوبية. كما يشاع ايضا بان تدلا بايرو يحاول التهرب من خوض اي نقاش يصادف حول انساب القبائل وسكان منطقة المرتفعات.

تدخل اسماعيل وهو يوجه كلامه لحقوص:-

- ليس من المهم لنا في الوقت الحاضر مناقشة اصل وفصل من حضر الاجتماع، بقدر ما يهمننا معرفة ما آل اليه اجتماع بيت جرجيس.

اتفق الزملاء على ترك موضوع الانساب والاعراق، وواصل حقوص حديثه:-

- تباري مؤيدي اثيوبيا في كيل الاتهامات للعناصر المطالبة بحق ارتريا المستقل، واصبح القاء تهمة العمالة لاطراف خارجية احدى المفردات التي تفنن مؤيدي اثيوبيا في صياغتها وتتميقها. واستمر الحال هكذا حتى الثانية ظهرا، دون ان تظهر اي بادرة تقارب بين المجتمعين. وقد حاول السيد ولدآب ولدماريام التحدث مرارا الا انه لم يجد الفرصة. واخيرا قرر مؤيدوه اخراجه من الاجتماع حتى لا يتعرض للمزيد من التحرشات والاستفزازات، خاصة من شباب حزب الوحدة المسلحين.

بدأت امارات عدم الارتياح تظهر بوضوح على وجه ادريس، الذي سرعان ما قال:-  
- وماذا كان يفعل الآخرون امام تهجمات وتحرشات مؤيدي اثيوبيا. ماذا كان يفعل  
الذجماتش حسن علي، وماذا كان موقف ابراهيم سلطان والآخريين.  
واصل حقوص حديثه:-

- لم يكن الذجماتش حسن علي البالغ 64 عاما والذي تعرض للإساءة ومعه الآخريين،  
في موقف يمكنهم من الرد على مؤيدي اثيوبيا. كما لم يكن ابراهيم سلطان بالقادر،  
او حتى بالراغب في مقارعة القوم. فقد تحول الاجتماع منذ البداية دون وجه حق الى  
ساحة مناظرة للتفاخر بالانساب، واخذ الجو العام يتحول من باحث عن مستقبل  
ارتريا الى باحث عن صراع منفلت بين فئات مسيحية من ناحية، وبين المسلمين  
والمسيحيين من ناحية اخرى.

كان اسماعيل منزعجا لما كان يسمعه، ودون ان يلوى على شئى قال:-  
- حتى لو كان ما تقوله صحيحا الم يكن بمقدور كل من نكرتهم من زعماء الطائفة  
الاسلامية الرد ولو بصورة مخففة على تحرشات مؤيدي اثيوبيا؟.  
تفهم حقوص الحالة النفسية التي اعترت زميله، فرد عليه:-

- لم يأت معارضوا اثيوبيا بصورة منظمة كما اتى بها المؤيدون. فهم لم يكونوا يدرون  
او يدركون مدى ترابط وتراص الاتجاه المعارض لهم، ولم يحشدوا قواعدهم كما  
حشدها المؤيدون لاثيوبيا. حتى انهم تجاهلوا العديد من الزعماء، فلم يكن في  
اوساطهم من يمثل العديد من زعماء قبائل التجري، والعساورة والساهو، والبلين  
والدناكل. فقد كان حضورهم ضعيفا لم يتجاوز العشرات. بينما في المقابل حشد  
مؤيدوا اثيوبيا العديد من انصارهم، والعديد من شبابهم المسلح، وطعموا حشدهم  
بالعديد من رجال الكنيسة، والعديد من التجار، وموظفي الادارة البريطانية. وهكذا فقد  
كان حضور المسلمين في ذلك الاجتماع ضعيفا للغاية وغير مؤثر بالمره.

واضاف حقوص:-

- ومع ذلك فقد حاول ابراهيم سلطان مرارا التحدث الا انه لم يجد الفرصة. فلم يكن له  
من بد سوى الانسحاب من الاجتماع، خاصة عندما انبرى له احد المهوسين  
المسلحين من شباب مؤيدي اثيوبيا قائلا "نحن لم نأت الى هنا لسماع وجهات نظر

زعماء المسلمين. وعلى المسلمين شأؤوا ام ابوا تنفيذ ما نتفق عليه نحن المسيحيون.  
وبامكاننا وبما لنا من جاه وسلطان، ان نقود أولئك المسلمين الى الاتجاه الذي يحقق  
مصالحنا".

## (9)

تمكن إدريس محمد صالح من إجادة مزاولة مهنة البيع والشراء. وكانت عمليات بيع مواد الزينة في متجره الصغير، في السوق العربي في مدينة مصوع، تصل الى ذروتها خاصة في موسم الافراح مثل الخطوبة، الختان والزواج والتي كانت تتم في الغالب في فصل موسم امطار مناطق السهول الشرقية، الذي يبدأ عادة، اذا كان الموسم جيدا، من منتصف ديسمبر ليستمر حتى منتصف مارس من كل عام.

كانت المواد التي يعرضها متجر إدريس ذات جودة عالية تخب الباب الراغبين بها، وتتغنى بها فتيات ذلك الوقت. مما اكسب ذلك إدريس امكانية التعرف على العديد من الزبائن القادمين من مختلف القرى والبلدات، وعقد الصداقات معهم، والتعرف على عاداتهم وثقافتهم، وحتى همومهم الخاصة، بالاضافة الى معرفة اتجاهاتهم السياسية. ومع مرور الوقت لم يكتسب ادريس خبرة واسعة في عمليات ومساومات البيع والشراء، وكيفية التعامل مع الناس وكسب ودهم فحسب، بل اصبح احد المحاورين الاساسيين في الاوضاع السياسية التي كانت تمر بها البلاد، واحد العارفين ببواطنها.

كما كان المتجر من ناحية ثانية ملتقى العديد من المهتمين بالاوضاع السياسية الجارية في البلاد. الى درجة اصبح فيه المتجر وصاحبه، خاصة في الاوقات التي يقل فيها الزبائن الى ساحة حوار سياسي، يتبادل فيها الناس آرائهم وانطباعاتهم، خاصة بين الاصدقاء منهم من امثال إسماعيل زيوي عمريت، وحقوص ارعدوم وغيرهم.

وكالعادة وما ان يرفع آذان المغرب في مسجد السوق، حتى يقوم ادريس بتناول ابريق ماءه ويتوضأ ويقوم بقل متجره ويذهب للصلاة. ومن ثم يتوجه قاصدا قريته قرية الشيخ حليب. وما ان يصل منزله حتى يتوجه مباشرة الى والدته السيدة ملوك عبدالقادر، التي تكون هي الاخرى قد فرغت من صلاة المغرب، ليقبل يديها ورأسها. ومن ثم يلقي تحية المساء على زوجته السيدة فاطمة ياسين عمر الشيخ، والتي عادة ماتكون قد فرغت من تجهيز وجبة العشاء التي لا تتجاوز في احسن تقدير، على قطعة من "الحبزت" وسمكة "الحبر تكوس" (1) الصغيرة الحجم، وكوب من حليب الماعز.

---

(1) حبرتكوس نوع من السمك المعروف في المنطقة، ذو لون اصفر له نقطة سوداء في ذيله. وهو يتوفر بكثرة خاصة في فصيل الصيف، وذلك نسبة لتكاثره وسهولة صيده.

بعد اداء صلاة العشاء يجد إدريس نفسه نائماً في فراشه، لا يصحى منه إلا مع بزوغ الفجر وعلى اصوات اغنامه التي تتجه الى ضواحي القرية للرعي، ماعدى أمسيات ايام الثلاثاء والخميس اللتين يسهر فيهما، وذلك للتفرغ فيهما لممارسة واجباته الزوجية.

كان ادريس قنوعا على ما يتحصل عليه من رزق يسد به احتياجاته واحتياجات أسرته الصغيرة، وفي بعض الاحيان كان يتصدق منه على بعض الفقراء وذوي الحاجة خاصة في شهر صوم رمضان. ومع ذلك فقد كانت هناك بعض القضايا التي كانت تشغل باله، البعض منها شخصي مثل عدم انجاب زوجته في سنتها الاولى من الزواج، والبعض الآخر كان يتعلق بالاوضاع السياسية العامة التي كانت تمر بها البلاد.

لقد كان ادريس شديد الحساسية من عدم تمكن زوجته من انجاب ابنا له في سنته الاولى من زواجه، ومع مرور الايام اصبحت هذه القضية تقلق مضاجعه، واصبح كثير التفكير بها. في احدى ايام عصر الجمعة من صيف العام 1947م، اي بعد مرور سنة على زواجه، وبينما كان مستلقيا تحت ظل احدى نخلات داره الباسقة، التي يطلق عليها تسمية "أم عبده"، كان يسرح في تفكير عميق حول ضرورة واهمية ان يكون له طفلا يحمل اسمه ويرثه. لاحظ فجأة والدته السيدة ملوك وهي منتصبة امامه. إرتبك للحظة، الا انه ودون ان يتفوه بكلمة، جلس القرفصاء على الارض وإتكأ على جذع شجرته المفضلة، ليقول وهو يوجه كلامه للسيدة ملوك:-

- مرحبا هل من مساعدة اقدمها لك؟

ردت عليه قائلة:-

- لا اشكرك على ذلك. لكنني اريد التحدث اليك.

ودون مبالاة قال:-

- خيرا إنشاء الله.

تتحننت السيدة ملوك كعادتها لتقول:-

- يابني مضى على زواجك اكثر من عام. وكان من المهم ان افرح بابنك البكر.

رد عليها ادريس بصورة غير مبالية قائلاً:-

- أدعي لي بالصحة والعمر الطويل.

لم ترتاح والدة إدريس لرده، فهي كما تعتقد تدعي لابنها ليل نهار بالصحة وطول العمر، وبأن يرزق بذرية صالحة. ومع ذلك بادرتة قائلة:-

- يا بني ان من عادة اهالي قريتنا، قرية الشخ حليب، ان يروا ابناءهم يخلفون قبل مضي سنة على زواجهم. بل يعتقدون بان المرأة التي لا تلد في سنتها الاولى من الزواج، هي امرأة عاقر. او ان مكروها اصاب احد الزوجين او كلاهما. وانا لا اريد ولا اتمنى ان تكون امرأتك عاقر او مصابة بمرض لا يمكنها من الولادة قبل اتمام عامها الاول.

إنزعج إدريس من كلام والدته. وبينما هو في حيرة من امره، ودون ان يدري او يعي مايقول، قال لها بصوت حاد مرتفع ينم عن الغضب:-

- أنا لا يعنيني ما يقوله الآخرون، ولا اريد ان اهتم به.

احمر وجه السيدة ملوك فجأة وكأنه اصيب للتو من ضربة سموم رياح الخماسين الحارقة، لتقول:-

- اني اخشى عليك من اقاويل اهل القرية، ومن القيل والقال، ومن حبك الروايات والقصص الخيالية حول عدم قدرة إمرأتك على الانجاب في عامها الاول.

أحس إدريس بحرقة، ودون ان يلوي على شئ انتفض من مكانه، وخرج مسرعا من باب الدار ليتسكع في ازقة القرية. ولم يعد الى بيته، على غير عادته، الا بعد صلاة العشاء، ليقوم مباشرة الى فراشه، ودون ان يتناول حتى طعام عشاءه.

وعلى الرغم من ذلك، لم تكن فاطمة تعلم بما دار بينه وبين والدته السيدة ملوك، احست وكأن مكروها اصاب زوجها، فهي وعلى امتداد عام كامل لم تشاهده وهو يتجاهل طعام العشاء، ولم تره يتوجه الى فراشه دون ان يلقي عليها تحية المساء، فقررت التوجه اليه. وبينما هي جالسة في طرف فراش زوجها بادرتة قائلة:-

- مابك؟ ولما التعجل على النوم دون ان تتناول طعام عشاءك؟

لم يهتم إدريس بالرد على تساؤلات زوجته. فمن عادة اهل القرية عدم التحدث او التشاور مع زوجاتهم، ظنا منهم بان النساء "ناقصات عقل"، ولا يجوز التحدث اليهن في امور لا يفقهن معانيها. وإنهن "لم يخلقن إلا من اجل سماع مايريد ازواجهن التحدث اليهن فقط". وجريا وراء

مثل هذا الفهم الخاطيء، فهو لم يشاء ان يسرد ما يقلقه، ومادار من حديث بينه وبين والدته. واختار ان يقول:-

- لاشيئ يافاطمة اريد ان انام فقط.

ادركت فاطمة بان شيئاً ما يؤرق زوجها، وان العلاج لمثل هذه الحالة هو اتباع الارشادات والنصائح التي كثيرا ما سمعتها من قبل اقربائها خاصة النساء منهن. الا وهو ترطيب الاجواء بكلمة طيبة، والإستلقاء بجانب الزوج واحتضانه، وحك فروة رأسه بلطف، وتمرير اليد على المواضع الحساسة بجسد الزوج. وبينما هي تقوم بذلك، همست في أذن زوجها اليمنى قائلة:-

- إنني زوجك، ولا اريد الاصرار على معرفة ما لا تريد بوحه لي. لكنني لا اريد منك ان تظل غاضبا من شيئ لا اعرفه.

نجحت فاطمة من التخفيف من وطأة ما كان يحس به إدريس، وبدأ بالتجاوب معها خاصة بعد ان احس بان اغراء زوجته، وتأثير فاعلية اصابع يديها على جسده لا يمكن ان يقاوما، او حتى لا يمكن تجاهلهما. فأستدار نحوها، بعد ان كان قد ادار لها ظهره، وبدأ بحضنها والالتصاق بها.

ادركت فاطمة خلال تلك اللحظة، بان اعصاب زوجها قد بدأت بالارتخاء من التشنج الذي اصابها، وأقرت بان الحكمة تقتضي بالتجاوب معه، والوصل به وفقا لما تقتضيه واجبات الحياة الزوجية، وهي راضية مرضية، وهذا ما حدث في تلك الليلة.

قام إدريس من نومه مبكرا، واغتسل وتوضأ وادى صلاة الفجر وهو في غاية السرور والانشراح. حتى اسرعت زوجته باحضار طعام افطاره، الذي اعدته قبل ان يقوم من نومه. وما ان فرغ منه حتى احس بضرورة مفاتحة زوجته بما اعتراه خلال الايام السابقة، خاصة ماكان يشعر به ليلة البارحة. خارقا بذلك ولأول مرة تحذير اهالي قرية الشيخ حليب في عدم التحدث للنساء عن ما يشغلهم من امور قائلا:-

- لم تكوني السبب فيما كنت فيه ليلة البارحة، لقد ازعجتني الوالدة.

اندهشت فاطمة، فهي لم تكن تتوقع ان تكون السيدة ملوك مزعجة لدرجة تصل الى اغضاب ابنها. فأسرعت بالقول:-

- كيف تغضبك السيدة الوالدة، ولماذا؟

لم يكن من بد لإدريس سوى القول:-

- مضى على زواجنا قرابة العام و .....

ادركت فاطمة بحسها الفطري ماذا يقصد إدريس من كلامه، لتقول:-

- من حق السيدة ان يكون لها حفيدا، وهذا ماتتمناه كل أم لإبنها. وهو بالطبيعة لا

يمكن ان يغضب المرء، خاصة اذا كان يحظى برضى وتعاطف والدته.

إستغرب إدريس، ولم يكن يتوقع ان تدلي فاطمة بمثل هذا الكلام المسؤول والحكيم في نفس

الوقت. وبعد برهة من الزمن قال:-

- كنت اعتقد بأنها تسخر مني عندما قالت "يا بني مضى على زواجك حوالي العام،

وكان من المهم ان افرح بابنك البكر".

لم تسمح فاطمة بان يسترسل زوجها فيما دار بينه وبين والدته فعاجلته قائلة:-

- وما العيب في ذلك، فمن حق الوالدة كما قلت ان يكون لها حفيدا تهتم به وترعاه،

ونفتخر به امام أقرانها.

إزداد تعجب إدريس واراد سماع المزيد، عل ذلك يشفيه مما هو عليه. اذ قال:-

- صحيح بان من حقها وحقنا نحن ايضا ان يكون لنا ابنا نفتخر به. الا اننا لم

نحقق هذا حتى الآن، واخشى ما اخشاه ان لا تلوكننا السنة اهل القرية.

إنقضت فاطمة وهي تسأل:-

- ماذا فعلنا باهل القرية حتى تلوكننا ألسنتهم؟

رد عليها إدريس:-

- ان المرأة التي لا تلد خلال عام من زواجها تعتبر إمراة عاقر، او بها علة ما.

ضحكت فاطمة، إلا ان إدريس استهجن ذلك قائلا:-

- لماذا تضحكين ان اهل القرية ....

لم تتأخر فاطمة في الرد عليه، اذ قالت:-

- اعرف في مثل هكذا حال ماذا يقول اهل القرية، وبماذا يعتقدون.

كانت فاطمة على يقين من انها سوف تخرس السنة من يحاول التعرض لها او لزوجها. اذ

انها احست قبل اكثر من شهر بأن شيئا ما يتحرك في احشائها دون ان تدري سببا له. وقد

كانت تعزوا ذلك لاسباب عدة من اهمها، انها كانت قد اصيبت بعسر هضم نتيجة لتناولها



كميات من اللحوم في زواج احد اقربائها. إلا انها وبعد ان لاحظت توقف عاداتها الشهرية لفترة تزيد عن الشهرين، بدأت تشك بأنها يمكن ان تكون حاملا. وما ان مر عليها شهرها الثالث، ولم تلاحظ اي بوادر لنزول العادية الشهرية لديها، أيقنت بأنها حامل في شهرها الثالث، وذلك بناء على ما اكدته لها ابنت خالتها سعيدة.

لم ترغب فاطمة في الاستعجال والتحدث الى زوجها عن حملها، وفضلت ترطيب الجو، وحثه للتوجه الى عمله فقالت:-

- لقد أذفت ساعة ذهابك الى العمل، ومن الافضل لنا تأجيل حديثنا عن ما يمكن ان يقوله اهل القرية، بعد عودتك في المساء سالما من العمل.

توجه إدريس بناء على اقتراح زوجته الى عمله، وما ان لاحظت السيدة ملوك خروجه من باب الدار حتى اسرعت للقاء زوجة ابنها، لتقول:-

- صباح الخير يافاطمة، اراك منشحة الصدر خير انشاء الله.

ردت عليها:-

- صباح الخير يا عمتي. مابي شئ، واتمنى ان ينزل الله علينا المزيد من الانشراح والسعادة.

لم يعجب فاطمة تلميح السيدة ملوك، وادركت بانها تعني او تريد التحدث فيما يتعلق بحملها. وتقاديا لذلك اقترحت ان تقوم بصنع القهوة لها. وعندما وافقتها على ذلك، اسرعت بتجهيز ادوات صنع القهوة، فأحضرت الجبنة<sup>(1)</sup> وملحقاتها من الفناجين، والكوسكوس<sup>(2)</sup> والكانون<sup>(3)</sup> والموقئ<sup>(4)</sup>، وحفنة من البن وقطعتي زنجبيل، وقليل من الفحم الخشبي. وبأشرت في قلي حبات البن والزنجبيل، ووضعت الجبنة في الكانون، بعد ان عبثتها بحبات البن المقلي والمدقوق، حتى يتم سلقه بالماء المغلي في الجبنة. وقامت بغسل الفناجين، وبدأت بسكب

---

(1) الجبنة هي وعاء مصنوع من الفخار، يستخدم في صنع القهوة البلدية.

(2) الكوسكوس هو عبارة عن قطعة من الزينك مصنوع على شكل علبة صغيرة الحجم، وله مقبض جانبي طويل، وهو يستخدم لقلي حبات البن.

(3) الكانون هو اهم ادوات صنع القهوة البلدية، وهو يصنع من الزينك على شكل صفيحة متوسطة الحجم، يوضع فوقه الجمر، بهدف قلي حبات البن.

(4) الموقئ هو عبارة عن آلة خشبية مقعرة مستطيلة الشكل، يتم فيها سحق حبات البن المقلية.

البن لتقدمها في النهاية للسيدة ملوك، وهي ساخنة تفوح منها رائحة طيبة نتيجة لإختلاط البن المسحوق بدقيق الزنجبيل.

بدأت المرأتان بتجاذب اطراف الحديث عن الطقس، وامكانية هبوب رياح الخماسين الصيفية. ولم يمضي الوقت طويلا حتى بدأ الحديث يأخذ منحى آخر، كان ولازال يدور في خلد كل منهن عندما طرحت السيدة ملوك السؤال التالي:-

- ارى جسمك مكترا قليلا على غير عادتك يا فاطمة.

أدركت فاطمة ماذا تقصد السيدة ملوك من سؤالها هذا، ودون اي تزيث ردت عليها بصورة تتم عن الخبث عندما قالت:-

- نعم يا عمتي، اعتقد بان صحتي على مايرام، فقد كانت ظروفنا خلال الثلاث اشهر الماضية ممتازة، اذ كان غذاءنا يحتوى على المغذيات الاساسية الثلاث اللحم، السمن واللبن.

لم يرغب على السيدة ملوك بان رد زوجة ابنها كان نوعا من التحايل المحبب. فإرتسمت على شفيتها ابتسامة ذات مغزى، وسألته على الفور وهي تطبطب على كتفها:-

- يا صغيرتي انني الاحظ منذ فترة بتفتح بشرتك واكتناز جسمك، وقد لاحظت قبل شهر تقريبا وانت تتقيئين، وكل هذا يدل حسب تجربتي الطويلة على انك حامل، وربما تكونين في شهرك الثالث او الرابع. فلماذا التخابث، واللف والدوران معي. ألا يجب ان تكوني صريحة معي. فأنا بمثابة أمك، وانت زوجة إبنني.

واردفت قائلة:-

- كنت بالتجربة اعلم بانك حامل. لكن لم اكن متأكدة تماما من ذلك. فحاولت يوم امس ان استدرج ابني لمعرفة الحقيقة. إلا انه لم يكن يدرك مقصدي. فثار وتركني، وانصرف عني.

تأثرت فاطمة بكلام السيدة ملوك، ولم تحبذ السكوت على ماتحس وتشعر به، خاصة وانها تكن الكثير من الاحترام والتقدير لها، فقررت مفاتحتها قائلة:-

- نعم يا عمتي منذ فترة وانا احس بان تغيرا ما بدأ يحدث في جسمي. فقد احمرت وتورمت نوعا ما حلمتي ثديي، وما عدت اطيع لمسهما، وانقطعت دورتي

الشهرية، واصاب بين الحين والاخرى بالدوار وكان الارض تريد ابتلاعي. كما  
احس برغبة شديدة للتقيء، وما عدت اتحمل حبس بولي لفترة طويلة و...  
قاطعتها السيدة ملوك بعفوية قائلة:-

- نعم يا فاطمة كل ما تشرين اليه يؤكد بانك حامل.

وقبل ان تكمل حديثها، أمت وجهها شطر القبلة، واخذت ركعتين تعبيراً عن شكرها وحمدتها  
لله. وبعد ان فرغت من ذلك، احتضنت زوجة ابنها، وقبلت وجنتيها بحرارة فائقة. لتواصل بعد  
ذلك حديثها قائلة:-

- انني اشكر الله سبحانه وتعالى اذ انه سوف يحقق لي حلمي في ان أكون جدة،  
ويصبح لي حفيداً.

اغرورقت عيني فاطمة تأثراً بما قالته السيدة ملوك، واختنقت الكلمات في صدرها، فأكتفت  
بالصمت وهي مطأطأة الرأس. ولبرهة ساد المكان صمت مطبق تم كسره عندما قدمت  
فاطمة فنجان الوجبة الثالثة من قهوة الصباح لحمايتها، وهي تقول:-

- كيف يمكن اخبار إدريس بحملي.

ردت عليها السيدة ملوك قائلة:-

- أفضل ان تقومي بنفسك بإعلام زوجك فقط.

واضافت وهي تحذر:-

- لا يجب ابلاغ اي كان بحملك حتى لا تصابي بعين احد الحساد، وهم كثر في

قريتنا والعياذ بالله منهم. ولنترك اهل القرية يكتشفون بانفسهم مقدم مولودك

المرتقب. ومن جانبي سوف اذهب غدا الى دار اهلك واخبر أمك بذلك.

واضافت قائلة:-

- عليك من الآن الاهتمام بصحتك، وحذارا من التوجه في مهمة لجمع اخشاب

الطهي، اذ انني سوف اقوم بالانابة عنكي بجمعها. كما انك سوف لن تقومين

بطحن الذرة التي سوف اقوم بطحنها بنفسي. وعليك المواظبة على اداء فرائض

الصلاة الخمس، والإكثار من الادعية، وزيارة اضرحة أولياء الله الصالحين،

وتجنب الظلام، وعدم التبول تحت ظل الاشجار، اذ انها خاصة في الليل تكون

مسكناً للأرواح الشريرة.

في المساء عاد إدريس كالعادة الى قريته وتوجه رأسا الى منزله. استقبلته السيدة ملوك على باب الدار وهي تبسم، وما ان لاحظها حتى قبل يديها، وبادرها بالقول:-  
- مساء الخير ياسيدة اراك مبتهجة.

ردت عليه:-

- مساء الخير يا بني. لقد اشتقت اليك، اذ انني لم اراك منذ يوم عصر البارحة. آمل ان لا تكون غاضبا مني نتيجة لمادار بيني وبينك من حديث يوم امس. فأنا لم اكن اقصد اهانتك.

تفاجأ إدريس، وايقن بان ما قام به يوم امس من تصرف لم يكن لائقا مع والدته. وعلى الفور أقر بخطئه، وقرر وبصورة سريعة الاعتذار قائلا:-

- ارجوا منك الاعتذار ياسيدة. فأنا لم اكن اتمالك اعصابي يوم امس. فمن ناحية فاجئتي بحديثك حول اهمية وضرورة ان يكون لك حفيدا، وما يمكن ان نتعرض له من السنة اهل قريتنا. ومن ناحية اخرى فانا منزعجا من الاوضاع التي تمر ببلادنا، نتيجة لعدم ادراك زعماءنا لابعاد اختلافاتهم السياسية.

واردف إدريس، بينما السيدة ملوك تصغي اليه باهتمام قائلا:-

- كل هذه الامور الخاصة والعامة جعلتني لا اتمالك اعصابي ياسيدة. وعموما ارجوا ان تقدرني وضعي هذا. وقبل كل ذلك ارجوا ان تسامحينني عن ما بدر مني.

تنفست السيدة ملوك قليلا، ورأت بان من الضرورة الصفح عن ابنها فقالت:-

- يا بني انني معك في كل صغيرة وكبيرة، سواء اكنت بكامل وعي ام لا. ولا اخفيك سرا فقد كنت منزعجة لما يمكن ان تسببه لنا السنة اهل القرية نتيجة لعدم قدرة إمرأتك من انجاب طفلا لك في الوقت المحدد.

أراد إدريس ان ينهي الامر ، فقال:-

- ياسيدة مافات قد مات، ولا توجد اي فائدة من التحدث في امور لم نكن نحن السبب فيها، سواء فيما يتعلق بقدرة فاطمة من الانجاب في الوقت المحدد او عدم قدرتها، او فيما يتعلق بالاوضاع السياسية التي تمر ببلادنا. وعلينا الصبر فانه مفتاح الفرج.

وافقت السيدة ملوك على انهاء الامر بعفوها عن ابنها. ودخل إدريس منزله، وسلم على زوجته التي كانت في انتظاره. واثاء تناول عشاءه اشتم رائحة عطرة في المنزل، فالتفت ليرى في احد اركان البيت مقبرت<sup>(1)</sup> يتصاعد منها الدخان. فسأل زوجته:-

- ما هذا يافاطمة، وماهي المناسبة التي تشعلين فيها البخور؟.

ترددت فاطمة في البداية، الا انها ودون ان تدري قالت:-

- رأيت بان من المناسب إشعال البخور لتعطير منزلنا.

إستغرب إدريس للامر، فلم يكن من المألوف، إلا في مناسبات معينة، تبخير البيت. وبدأ يفكر ما في الامر. فأعتقد في البداية بان المناسبة يمكن ان تكون إحياء لذكرى أحد أولياء القرية الصالحين. فحاول ان يستفسر عن ذلك قائلاً:-

- ماذا يافاطمة هل اشعلت البخور اليوم من اجل إحياء ذكرى احد اولياءنا

الصالحين؟.

ردت عليه فاطمة قائلة:-

- لقد احتفلنا في الاسبوع الماضي بذكرى السيد درويش. ولا توجد لدينا اليوم اي ذكرى لأي من أولياءنا. وقد اشعلت البخور كما قلت لك من اجل تعطير البيت.

واضافت وهي تمزح قائلة:-

- الا يستحق بيتنا التبخير؟

إزداد إستغراب إدريس فمن ناحية وعلى غير العادة إستقبلته أمه في باب الدار بكل لطف. كما ان زوجته لم تكن بأقل من امه، بل زادت في ذلك واشعلت البخور في المنزل، دون اي مناسبة. وبدأ متلهفا لإكتشاف سر كل ذلك. وما ان فرغ من تناول طعام العشاء حتى وجه سؤالاً لزوجته:-

- كوني صادقة معي يافاطمة، فأنا الاحظ بانك تخبئين شيئاً ما.

ترددت فاطمة هل تخبر زوجها بالنبا السعيد، ام تتركه يكتشفه بنفسه. الا انها وبسرعة قررت بان من الواجب اعلام زوجها بحقيقة ما تحس به من حمل قائلة:-

- يبدوا بان ما كنت تحلم به سوف يتحقق!

لم يفهم إدريس شيئاً مما قالته فقرّر ان يستفسر قائلاً:-

---

(1) مقبرت وتعنى بلغة التجري مبخرة، وهي تستخدم لاحراق البخور.

- بماذا كنت احلم يا فاطمة، فنحن والله الحمد مستورين في معيشتنا ولا ينقصنا شيء،  
ونكاد نكون افضل من العديد من ابناء قريتنا.

ردت عليه:-

- نعم لا ينقصنا سوى وجود طفل يملأنا فرحا وسرورا.

إنتفض إدريس من فراشه وهب واقفا ليقول:-

- أتقصدين بأنني سوف أرزق بطفل.

ردت عليه قائلة:-

- نعم بمشيئة الله.

ما ان سمع ادريس ما قالته زوجته، حتى هب واقفا على قدميه، وولى وجهه نحو القبلة واخذ  
ركعتين حامدا بذلك ربه على تحقيق امنيته. واحتضن فاطمة، ليغرقا سويا في نوم عميق لم  
يفيقا منه إلا على صوت مؤن القرية وهو ينادي لأداء صلاة الفجر.

مرت الايام والشهور سريعا، لتلد فاطمة في النهاية شهر يونيو من عام 1948م مولودها  
البكر الذي سمي منصور إدريس محمد صالح.

ادت الانقسامات السياسية الحادة بين مختلف الاطراف الارترية الى بروز واقع سياسي متردي، اختلطت فيه الامور العامة بالخاصة. واخذ الناس وبدلا من التفكير بصورة عامة، انصب تفكيرهم واهتماماتهم بكيفية خلق تكتلات فئوية وجهوية. ادى ذلك بدوره الى حساسيات مفرطة بين مختلف كتل التجمع الارتري بصورة طائفية، واقليمية وقبلية. واصبح القيام بالعمل السياسي الجاد في تلك الفترة مهمة صعبة يحسب لها الف حساب. وتحولت السياسة الى عمل ارتزاقى يهدف الى تحقيق المصالح الشخصية، وليس لتحقيق سيادة المصلحة الوطنية الارترية العامة.

وكان الناس خاصة بعد اجتماع بيت جرجيس وانفلات الامور، لا يكثرثون كثيرا بما يسمعونه او يقرؤنه، واخذ تفكيرهم ينصب في كيفية توفير لقمة عيشهم، او الاهتمام بحلحلة قضاياهم ومشاكلهم الخاصة.

انعكس هذا الواقع على الاصدقاء الثالث، فهم لم يعودوا يلتقون باستمرار لمناقشة القضايا السياسية العامة للبلاد. واخذت الحياة الخاصة بهم تأخذ جل اهتماماتهم ووقاتهم. وقد كان حقوص اعدوم اكثر تأثرا بالتردي السياسي العام الذي اصاب البلاد، واصبح همه بل شاغله الاوحد منصبا على ترحس التي لم تفارق مخيلته منذ ان رآها في بيت عمته في قرية معلو. وذات مساء وبينما كان ادريس يمازح ابنه الوليد، تذكر فجأة ودون سابق تفكير بالحالة المتردية التي يعيشها الناس. وكيف انه واصدقائه لا يلتقون كالعادة لمناقشة كل صغيرة وكبيرة. وكيف وصلت بهم الامور الى طريق مسدود دون ان يبذلوا اي جهد يذكر لتجاوز الحالة السياسية القائمة. وادرك بان من الواجب احياء تلك اللقاءات.

بادر ادريس بدعوة صديقيه للتفاكر والتحدث فيما آلت اليه الاوضاع. وعندما التئم الشمل في دكان إدريس كالعادة، وبعد تبادل التحايا والاستفسار عن مشاغل الحياة ومتطلباتها اليومية، بدأ ادريس بالتحدث قائلاً:-

- ارى بأننا قد قصرنا اولاً بحق بلدنا، وثانياً بحق انفسنا. فنحن اصدقاء منذ فترة طويلة وماجمعنا هو اكثر بكثير مما يفرقنا.

استغرب اسماعيل لما سمعه من ادريس، ولم يدري ماذا يقصد. فهو لايزال يرى بانهم لازالوا كما كانوا. فأخذ الفرصة ليقول:-

- انني لم افهم ماذا تعني بما قلته. فنحن ولا شك اصدقاء بل اكثر من ذلك فنحن اخوة تربطنا العديد من اواصر المحبة، والاحترام المتبادل، وفوق كل ذلك الهم السياسي المشترك.

اراد حقوص ان يتحدث ويعلق على ماسمعه، ولكن ادريس سبقه ولم يعطه الفرصة، اذ كان يريد ان يوضح رأيه، قائلاً:-

- مضت فترة طويلة ونحن لم نلتق. وقد تم آخر لقاء لنا بعد عودة حقوص من اجتماع بيت جرجيس. ومنذ تلك الفترة مرت الايام والاسابيع بل الأشهر ونحن لم نلتق. واصبحنا في تقديري نهتم اكثر بمشاغلنا اليومية، والتزاماتنا الاسرية، ناسين او متجاهلين ما يمر بنا من اوضاع سياسية في غاية الحساسية.

وجد حقوص الفرصة ليقول:-

- نعم لم نلتق منذ فترة. لكن هذا، بالرغم من مشاغل كل منا، لا يعني بأننا لا نريد ان نلتقي.

تدخل اسماعيل كعادته عندما لا يدرك ماذا قيل، قائلاً:-

- انني لا ادري عماذا تتحدثان، او ماذا تقصدان؟ فنحن ان لم نلتقي بإستمرار كما كان يحدث في السابق، فإننا لازلنا على تواصل دائم. فأنا شخصيا ملم بأوضاعكما اليومية انتما الاثنين فما هو الجديد في الامر؟.

حاول ادريس اقناعه قائلاً:-

- نعم نحن لم نعد نلتقي كسابق عهدنا. لكن هذا لا يعني بأننا لاندرى احوال بعضنا البعض. انني اقصد بأننا لم نعد كما كنا في السابق. فقد كنا نلتقي بإستمرار، الى درجة اننا في بعض الاحيان كنا نلتقي صباحا مساء، وتبادل الاخبار ونعلق على تطورات الاحداث خاصة السياسية منها. وكنا نحس بان ماضيه من وقت لم يكن كافيا لنا.

تدخل حقوص ليقول:-

- اننا جميعا ندرك ما يمر بنا، فالاوضاع وبصورة خاصة السياسية منها، لم تعد مشجعة.

لم يرتاح اسماعيل لما قاله حقوص، وكرد فعل عليه قال:-



- كلنا يدري تماما ماألت اليه الاوضاع السياسية في بلادنا. لكن هذا لا يعني بأننا يجب ان نستسلم، ونترك التفكير في معالجة حالة التردّي التي نعيشها. احس ادريس بالارتياح، ودون تباطئ قال:-
- ان مقاله اسماعيل صحيح للغاية. وبالإضافة الى ذلك احب ان أوكد باننا يجب ان لا نعطي المجال لمرتزقة السياسية ليفعلوا بنا وبشعبنا مايريدونه.
- ادرك حقوص بان مقاله لم يرح زميليه، وان كلامه قد فسر بصورة سلبية. فتدخل قائلاً:-
- ليس من حق اي منكما تأويل او تفسير ماقلته حسب مايريده. فأنا لم اقل علينا ترك الامور لمرتزقة السياسة، او علينا الاستسلام. بل كنت اعني بان الاوضاع التي تمر بنا ليست بالواضحة العادية او المشجعة.
- لم يكن اسماعيل يتوقع ان يكون رد حقوص بمثل هذه الحدة، وعلى الفور قال:-
- انا شخصيا لم اقم بتأويل ماقلته. ومهما كان، ومهما كانت قساوة الظروف التي تمر بنا، الا يحق لنا ان نجتمع مرار لتنفكر حول الاحداث السياسية التي تمر بنا؟.
- خشى حقوص ان لايزهد اسماعيل بعيدا بظنونه، فرد قائلاً:-
- انني أومن وبصورة حازمة، بان من الواجب علينا وعلى كل الحاديين على مصلحة الوطن، الاهتمام بامور البلاد والعباد.
- واضاف ليقول:-
- إلا انني احس واقدر بان المعادين لتوجهاتنا الوطنية هم الآن في وضع افضل. فهم وبما لهم من علاقات تأييد ومناصرة من قبل حكام اثيوبيا يقومون بما يريدونه. بينما نحن عاجزون حتى من توفير لقمة العيش لانفسنا. ان الاعداء يتربصون بنا، ونحن كما ترون لا حيلة لنا. لا نستطيع التحرك ... بل نكاد نختنق في كثير من الاحيان ونحن نتلأأ في حوارى وازقة مدينتنا. فالواضحة خانقة العامة منها والخاصة.
- اراد إدريس ان يلفظ الجو فقال:-

- نعم الاوضاع التي نعيشها هي اوضاع خانقة، لكن لم تكن بالجديدة علينا. فنحن كما تذكرون فقد مررنا باوضاع مماثلة، بل اصعب من تلك التي نعيشها الآن. ومع ذلك لم تهبط هممنا وعزيمتنا.

واضاف قائلاً:-

- اعتقد باننا اصحاب قضية. وقضينا واضحة تماما، وهي اننا نريد ان نكون ابناء انفسنا. لا استبداد... لا طغيان... لا...

ودون ان يكمل قاطعه اسماعيل قائلاً:-

- انكم تكرر الكلام مثلما تفعل النساء. ان موضوعنا الذي اثارناه منذ البداية لم يكن حول طبيعة القضية الملقاة على عاتق اي منا. ولا حول قوة او ضعف اعداء بلدنا. فكل هذه المسائل مفهومة لنا، وكنا ولانزال نعمل ونحن نعي وندرك ما يواجهها من صعوبات. فلماذا لا يختصر حديثنا حول ضرورة واهمية الالتزام بعقد اللقاءات بيننا كما كنا في السابق.

إعترى المكان للحظات صمت مطبق تم كسره من قبل ادريس، موجها كلامه لإسماعيل عندما قال:-

- اننا نناقش اهمية وضرورة ان يكون التواصل مستمرا بيننا، كما كنا نفعل في السابق. فأنا لم اقصد من طرحي لاهمية وضرورة اللقاء إلا من اجل ان نهتم اكثر بالتطورات والاحداث السياسية التي تمر بنا، وليس لتكرار الكلام مثلما تفعل النساء كما قال اسماعيل.

ادرك اسماعيل بانه لم يكن موفقا فيما قاله. وبأن زلة لسانه قد اثرت على نفسية صديقيه، خاصة ادريس. وللتخفيف عن وقع ذلك قال:-

- لم اقصد الالهانة. فأنا كما تعلمون افقد في بعض الاحيان السيطرة على لساني. وهذا ما اعانيه سواء معكم، او مع بعض الاشخاص المقربين لي.

لم يتردد حقوص في قبول الاعتذار، اذ قال وعلى وجه السرعة:-

- لأبأس، وحتى وان بدر من احدنا مايسيئ الظن بنا، فعلينا تجاوزه. وان ماتفوه به اسماعيل لا يمكن اخذه على محمل الجد. اذ يمكن ان يقال اكثر مما قيل بين الاخوة والاشقاء.

اراد ادريس قفل باب النقاش المثار، اذ وما ان انهى حقوص كلامه حتى قال:-  
- لابس فلنعتبر مابدر من اسماعيل مجرد زلة لسان. وان المطلوب هو العودة الى  
ما اثرناه، وهو ضرورة متابعة الاوضاع من خلال عقد اللقاءات المستمرة بيننا.  
وقبل ان يفترق الاصدقاء الثلاث كل الى شأنه، توصلوا لإقناعا مشتركة بصدد صعوبة  
المرحلة التي يعيشونها، وان بلادهم تمر باوضاع سياسية غير عادية. مما يحتم عليهم بذل  
اقصى طاقتهم والعمل بهمة من خلال وضع البرامج الكفيلة التي تمكنهم من تقييم الاوضاع،  
ومواصلة الاتصال بمختلف المواطنين، بهدف كشف وتعرية مخططات الاعداء. كما اتفقوا  
على ضرورة تنظيم انفسهم وتجديد التزاماتهم عبر القيام بعقد الاجتماعات الدورية.